بسم الله الرحمن الرحيم

القومية لدى شاعر الجندول

« على محمود طـه »

إعداد الدكتـورة

مفيدة إبراهيم على عبد الخالق

مدرس الأدب والنقـــد

بجامعة الأزهـــر

القومية لدى شاعر الجندول

د/ علاء محمود طه

إن ظهور القومية فى جميع أنحاء العالم موجة من موجات التقدم البشرى فى مراحل وجوده ، ودعوة من دعوات المجتمع إلى إبراز شخصية الأمة بكل ما تشتمل عليه من صفات ومميزات تدفعها لأن تتقدم فى إمكانياتها وقد صاحب هذا الاتجاه الإيمان بالفرد والعمل فى سبيل حرية الشعب ، وتحقيق العدالة والحق والسلام .(١)

وإن كانت بعض القوميات قد خرجت عن مبادئ وجودها القومى وأصبحت عدوانية وتنكرت لمبادئ العدالة والإنسانية التى بشرت بها قوميات العالم .(٢)

ومن غير الأدب والفن بوجه عام يمكنه أن يلمس جوانب الحياة الإنسانية فيتعدها برعايته ويشملها بروحه وينفحها عطر نفحاته ويبعث فيها من أحاسيسه ما يجعلها نعمة من نعم البشرية على الإنسانية كلها ؟

فالأدباء والمفتنُّون هم الذين استطاعوا أن يخلدوا الوجود البشرى منذ أقدم عصوره ، وهم الذين سكبوا من روحهم فيه ما جعله حيا ناطقا ، وهم الذين أُسبغوا عليه من فنهم ما أكسبه جمالا وروعة .

بل ومن غير الشعر يستطيع أن يشعر بنبضات الأمة وبمشاعرها وأحاسيسها ، فيصور بمداد هذه النبضات آمال مجتمعه وآلامه ويصوغ من حاجاته آيات بينات من القول ؟ بل من غير الشعر له القدرة على تصوير الأحاسيس البشرية

---

(١) انظر آراء ودراسات فى الفكر القومى لساطع الحصرى وآخرين .

(٢) انظر الأدب والمواطن لعباس خضر .

بكل ما فيها من عمق المشاعر الإنسانية وانفعالاتها ؛ فتعانق روحه روحها فى صدق وإيمان وإخلاص بكل ما فيها من خير وجمال ؟

والمفتن هو الذى خلق من أجل المجتمع والشعر فى أصله كان ينشد مع الموسيقى والرقص ويشترك فى ذلك الجماعة فهو أصلا عمل اجتماعى يشترك فيه الشاعر والجماعة .

والشاعر لا ينشد لنفسه فقط بل لغيره أيضا . فينبغى أن يحس أحاسيس الجماعة ويعبر عن مشاعرها ويشاركها آلامها ، وبذلك يمنح تجربته العمق والأصالة .

وهنا لابد أن نتساءل هل نفرض على (الشعر القومى) أن يسلك مذهباً معيناً ؟ فنحدد له طريقه ونرسم له مواضيعه ونضع له حدوداً فنطلب من الشاعر أن يقول كذا ويشعر بكذا .... ؟

وهل نستطيع أن نتحكم فى مشاعر النفس الإنسانية وأحاسيسها ؟

فكثيرا ما ينفعل الشاعر بأبسط الحوادث وأصغرها قيمة فى نظر الإنسان العادى فإذا به يخلق منها لوحة خالدة ؛ هل نقول للشاعر أنزل إلى بيوت الفقراء وأدخل المصانع وعش مع اللاجئين ، ونمنعه من أن يستنشق الزهرة ويلم بعبيرها أو يصف النهر ويسبح بخرير أمواجه وما فيه من نعم الحياة ؟؟

هل يمكن لأحاسيس الشاعر أن تعيش فى أجواء معينة وقد خلقت منطلقة من حواجز قيودها فى روحها الحرية .

الحقيقة إنه ليس محدداً للمفتن أن يكون أداة إصلاح مباشر للجماعة يوجهها نحو ما يريد ، كما أنه من غير المعقول أن يعيش بعيداً عن مجتمعه منفرداً عنه وإلا فمن أين مداد قلمه ؟ ومن أين نبضات قلبه وخفقاته ؟

وشاعرنا القومى يعيش فى قلب أمته ويحيا فيها وهو فرد منها بل أكبر من فرد وأعمق فى مشاعره ، إنه عالم من الأحاسيس ودنيا من الانفعالات ولكنه ليس بشاعر أمة ذاك الذى يشم أريج الزهر ويعجز عن أن يلمس ويعبر عن نبضات أخرى فى جوانب مجتمعه ؛ بل ليس بشاعر أمة ذاك الذى ينفرد بأحاسيسه عنها متخذا من ذاتيته فلكا يدور فيه .

وليس بشاعر أمة ذلك الذى يتألم لمرض ينتابه ولا يحس بآلام مجتمع بأكمله وكل منها ذات قيمة حية ، فلا يوجد شعر لا ينبع من الحياة أو من تجارب عميقة بعمق المجتمع الذى يعيش فيه .

الشاعر القومى هو صاحب رسالة وصاحب اتجاه ونزعة تشعر به أحاسيسه دون أن تملى عليه .

يرى رسالته فى أى أسلوب من أساليب الشعر ، سواء كان رمزيا ، أو واقعيا ، أو رومانتيكيا أو كلاسيكيا ، يراها فى الزهرة ورعايته لها إذ فى هذا كله تقدير للأرض التى أنبتتها ولليد التى اعتنت بها وللجو الذى حباها عطره وزانها بألوانه ؛ فيشعر بالجمال يتغلغل أحاسيسه ويوقظ فيه الحس والحياة ليعيش حيا فى أمته وديعا فى أخلاقه ، يقدس جمال موطنه فيدفعه للمحافظة عليه والذود عن حرماته .

ويلمس فيه تقديس الإنسانية جميعها والمحافظة عليها من أيدى التدمير البشرى الذى يعده العدوانيون لها .

إن الشعر القومى ينطوى على رسالة إنسانية تؤكد وجود الكيان العربى أولا وتسعى للمحافظة عليه لتذوق شتى نواحى الجمال والعزة والكرامة فيه وكلما ازداد شعور المرء بوطنه ازداد شعوره بالحياة كلها وازداد تقديره لرسالة الإنسانية

الحضارية وكان إنسانيا يشارك فى تقدم العالم وسعادته وتحقيق معانى الطمأنينة والسلام والرخاء له .

لن يكون الشاعر قوميا ما لم يحس شعره بأصداء فجر أمته وبأجواء فضائها الرحيب وبما فيها من تقارب الحياة ، فيستلهم منها معانى فنه وألوان ريشته وتباريح شوقه وهيامه وأصالة أحاسيسه .

✪ ✪ ✪

وهذا شاعر الجندول ، الملاح التائه ، صاحب الألفاظ الخلابة ، شاعر قومى أحس بأصداء فجر الأمة العربية فحلق وامتزج بأجواء فضائها ، وعبر بأشعاره فكانت القول والفعل .

وهناك ديوان شعرى كامل لـ (على محمود طه) ضمن مجلد أشعاره وقد أسماه (أصوات من الشرق) نشر بديوان شعره خصه جميعه فى الشعر القومى من صفحة ٣٧٥ إلى صفحة ٤٢٤ وذلك على النحو التالى :

صفحة ٣٧٧ قصيدة (إلى أبناء الشرق) ، وصفحة ٣٨٠ قصيدة (يوم فلسطين) ، صفحة ٣٨٣ قصيدة (من الأعماق) ، صفحة ٣٨٥ قصيدة (على النيل) ، وصفحة ٣٨٨ قصيدة (مصر) وصفحة ٣٩١ قصيدة (لقاء ودعاء) وصفحة ٣٩٥ قصيدة (عودة المحارب) وصفحة ٤٠٢ قصيدة (بطل الريف) وصفحة ٤١٠ قصيدة (فى صفوف المجاهدين) وصفحة ٤١٢ قصيدة (شهيد ميسلون) وصفحة ٤١٥ قصيدة (سوريا وعيد الجلاء) وصفحة ٤٢٠ قصيدة (الأمير المجاهد) وصفحة ٤٢٣ قصيدة (مصرع سياسى) .

هذا بالإضافة إلى القصائد القومية المتناثرة فى ثنايا مجلد أشعاره والتى سوف نشير إليها من خلال هذه الدراسة كل منها فى موقعها .

فى تلك البيئة الشاعرية التى تتفتح فيها النفس أول ما تتفتح على الجمال والحب فى المنصورة عروس النيل ولد ، على محمود طه ، بعد مولد هذا القرن بعام أى ١٩٠١م .

ولقد كانت المنصورة بحق ثرية خصبة لإنبات شاعر عظيم . وكان صاحبنا مفتنا بطبعه ، فلم يلبث عواطفه أن تفجرت مبكرة ، ولم يلبث لسانه أن انطلق بالشعر ولما يبلغ السابعة عشرة من عمره ، ولم يكن شعره فى الحقيقة إلا لحنا يتجاوب مع هذه الموسيقى الحالمة التى يعزفها الكون .

ومن أجل هذا نراه رقيقا فى حسه ، فنانا فى ذوقه ، كريما فى خلقه وطبعه .[١] وقد قضى الملاح الشطر الأول من حياته متقلبا فى أحضان الطبيعة ، سابحا فى لجج الهوى والغرام ، شاردا فى متاهات الشك والوهم والحيرة والضلال . ولكن الحرب العالمية الثانية لا تلبث أن تعصف بالعالم وهو فى (برلين) فيعود مسرعا إلى وطنه يكاد البرق يخطف بصره ، ويكاد الرعد يصم مسمعه . يعود إلى وطنه ليأوى بزورقه إلى مكان أمين حيث يطوى شراعه ويخفض من صوته ويكتم من أنفاسه . وتمضى خمسة أعوام تطغى فيها أصوات قصف المدافع ودوى القنابل على أهازيج الجمال وأناشيد الحب . وبعد هذه الأعوام يرتفع صوت شاعر الجندول ، صوت الملاح ، بصوت جديد صوت الندم والحسرة على ما فات فيقول :

عبرت بى الخمس فى صمت وحزن ∴ أى خمس بعدها تمتد سنى ؟[١]

فالشطر الثانى من هذا البيت لا يخلو من مرارة عميقة فى نفس قائله ، وألم حاد على هذه السنوات الخمس التى لا يسهل تعويضها لأن عمر الإنسان أقصر من أن يعد بالخمس سنوات !!

---

(١) انظر مع الملاح التائه ، على محمود طه / عبد الستار الحلوجى ص ٦ : ٨ .
(٢) ديوان على محمود طه ص٣٢٣ .

على إنه ينبغى ألا نظن أن الشاعر قد صمت حقا ، فقد كانت فترة الحرب هذه من أخصب الفترات فى حياته إنتاجا ، فشاعرنا وإن كان قد عاش هذه الأعوام الخمسة حزينا مكتئبا ، إلا أنه لم يقضها صامتا معقود اللسان . ويغلب على الظن إنه يعنى بالصمت والحزن ، ذلك الصمت الذى خيم على العالم طوال فترة الحرب ، وهذا الحزن كان يملك على الناس قلوبهم ويسد عليهم جميع المنافذ فلايستطيعون منه فكاكا ولا خلاصا .

وكيف السبيل إلى الخلاص ، والحزن والموت يتربص بهم فى كل مكان ، والفجائع تهبط عليهم من السماء وتخرج لهم من جوف الأرض ؟!

أجل ! لقد كانت خمسة أعوام عاشتها الإنسانية فى صمت وحزن . وكان طبيعيا أن يأخذ الشاعر نصيبه من الحزن لأنه إنسان يعيش فى عالم اللحم والدم ، ويتعرض لما يتعرض له سائر الناس من الأهوال والخطوب . وليس ثمة حدث فى حياة الشاعر أهول ولا أخطر من نشوب حرب عالمية فيها تسفك الدماء وتحصد الأنفس وتزهق الأرواح .

ولقد عاصر « على محمود طه » فى حياته حربين عالميتين كانت الأولى فى صباه والثانية فى شبابه .[1]

ولقد شغلت هذه الحرب الأخيرة خمس سنوات من عمره هى تلك التى وصفها بالصمت والحزن . ومن ثم لم يكن عجيبا أن نراه يضيق بالأرض التى لا تنبت إلا الشرور والآثام ويفزع إلى السماء يلتمس فيها ملجأ يأوى إليه ويعيش فيه بمنأى عن كل أثم أو شر ، فى رحاب الطهر والخير والعفاف .

---

(١) انظر بين شاعرين مجددين ايليا أبو ماضى ، على محمود طه د. عبد المجيد عابدين ص١١٢ .

وليس ديوانه (أرواح وأشباح) [1] الذى صدر ابان الحرب إلا تعبيرا عن هذه الفكرة ، وترجمة شعرية لذلك الخاطر . فـ« أرواح وأشباح » قصة شاعر آذنته السماء بالبعث إلى عالم الأرض ، فإذا هو خائف وجل غاضب مشفق من أن تتلاعب به الأهواء الأرضية وتطغى عليه كثافة الجسد حتى تهوى به إلى قرار سحيق ! .

إن الأرض فى نظر الشاعر شر لا يحتمل وجحيم لا يطاق أنها حلبة صراع الأهواء والشهوات والأطماع ، وما للشاعر وهذا كله ؟ إن روحه لتضج ، وإن أنفاسه لتختنق فى هذا الجو الفاسد .

ولا يكتفى شاعرنا بالرمز والإيماء ، وإنما يصحبنا فى دواوينه الأخرى التى ظهرت فى تلك الفترة من الزمان ، يصحبنا إلى أرض المعركة لينقل مشاعر الأمل والألم . وليرينا صورة الرجاء واليأس عندما تلوح فى سماء العالم بارقة أمل فى سلام يظل البشرية التى أنهكتها الخطوب وطال عليها أمد الشقاء ، فيطل الشاعر برأسه من الزورق ، وتطل معه ، بل تكاد تسبقه أطياف ذكرياته وأحلامه فيقول :

بعد خمسٍ جئتلي يا ذكرياتي
والأمانى بين موتٍ وحياةِ
بعد خمسٍ يا لها فى السنواتِ
حملت كل ذنوب الكائنات
صاح فيها زجلٌ بالظلماتِ
فطوتْ نجمى وسدّتْ طرقاتي

(١) نشر شعر ، على محمود طه ، كاملاً فى مجلد واحد يشمل دواوينه كلها ما عدا أغنية ، الرياح الأربع ، .

ورمتْ شـــملي ببينٍ وشـــتـــاتِ

والصِّبـــا نشـــوان والحب مـــؤاتي

فـاحـفظيـهـا فى المآسى الخـالداتِ

أو دعـيـهـا واذكـرى لى خطراتى

أرجعى لى بعض أحلامى ، وهاتى

صفو أنغامى ، وردِّى صدحاتى (١)

خمس سنوات ما أهولها هذه التى كفرت عن ذنوب الكائنات جميعا بما صبته عليهم من ألوان العذاب ، خمس سنوات قضاها العالم فى ظلام موحش رهيب يقبض النفوس ويوصد من دونها كل أبواب الأمل والرجاء ، خمس سنوات فيها تبدد الشمل وتفرق الجمع وأزهقت المهج والأرواح .

وصف ما أوجزه وما أبلغه فى تصوير الهول والفزع وفى تصوير اللهفة والشوق إلى عودة السلم والحب والوئام . وصف أن دل على شئ فإنما يدل على مدى استجابة الشاعر لما حوله ، ومدى عمق انطباعات هذه الأحداث فى نفسه ، وأنها لشديدة العمق .

وتنتهى سنوات الحرب ، ويخرج الملاح بزورقه من وسط الأحراش التى اختبأ فيها ، يخرج وقد امتحنت مشاعره ومشاعر أمته ، بل ومشاعر العالم كله .

ومن ثم نراه ينشر شراعه ويقترب بزورقه من شاطئ الأمان ، شاطئ الأمة العربية والوطن العربى الشاطئ الذى انتظرته عليه جماهير الشعب لتتلقى منه قياد زورقه الهائم ، ولتجعل منه قيثاراً يعزف خفقات قلوبهم وخلجات صدورهم وأصوات ضمائرهم .

---

(١) ديوان ، على محمود طه ، ص٣٢٢ .

وهكذا نجده يسبح فى ظلال المجتمع ، ونجد شعر الملاح مرآة صادقة تنعكس عليها صورة الأمة العربية بكل خواطرها وأحاسيسها .

ولا يمضى وقت طويل حتى نرى هذا الاتجاه الإجتماعى فى شعر « على محمود طه » ويبلغ ذروته فى ديوانه الأخير « شرق وغرب » الذى يحمل الينا « أصداء من الغرب » و« أصواتا من الشرق » .[1]

ولم تكن أصداء الغرب فى حقيقة أمرها إلا نوعا من الذكريات تطوف بخيال الشاعر وتتردد فى جنبات نفسه خافته بين الحين والحين أما أصوات الشرق فنحن نسمعها قوية صارخة لأنها تأتى من مكان قريب عن تكوين الجامعة العربية .

ولم تكن هذه الأصوات تنبعث من مصر وحدها ، وإنما من الأرض العربية كلها . فالشاعر حينما اتجه إلى الجماعة لم يكن يعنيه فقط أن يكون ترجمان المشاعر الوطنية المصرية بقدر ما كان يعنيه أن يكون شاعر الأمة العربية .

ولا نلبث أن نرى فكرة الأمة العربية الواحدة التى تشترك فى الآمال والآلام وتجمعها وحدة اللغة العربية والدين والتاريخ والمصير ، هذه الفكرة تملأ جوانب نفسه وتفرض نفسها عليه فيقول :

أرضُ العروبةِ لا تُخومَ ولا صُوىً
ما مصرُ غيرَ الشّامِ أو بغدادِ
وأُخُوّةٍ بالمسجدين وجيزةٍ
من آل طارقَ أو بنى عبّادِ [2]

---

(١) انظر على محمود طه بين شعراء مصر المعاصرين – رسالة علمية – آداب عين شمس .
(٢) ديوان (على محمود طه) ص٣٤٢ .
ولا تخوم ولا صوى : تفرقة وتناثر وتبعثر .

وهو لا يكتفى بأن يذكرنا بحقيقة الوحدة الجغرافية للعالم العربى وأن تعددت أسماء أجزائه وأنما هو يحشد كل امكانياته ليبرز هذه الوجدة العربية واضحة أمام كل ذى عينين فيقول :

لم تنأ بغدادُ عن مصر ولا بَعُدَتْ
لبنانُ والمسجدُ الأقصى وشهباءُ
أىُّ النخوم تناءَتْ بين أربعها
لها من الروح تقريبٌ وإدناءُ
أرضٌ عليها جرى تاريخنا وجرى
دمٌ به كَتَبَ التاريخَ آباءُ
مباركُ غرسُهُ ، منه بأندلس
والقادسيّة واليرْموك اجناءُ
خوالدُ النفح لم يذهبْ بنضرتَها
حُر وقرٌ وإصباحُ وإمساءُ (١)

فهو فى هذه الأبيات يسوق الأدلة والبراهين على وحدة الأمة العربية ، ويخرج من ذلك كله بالحقيقة الخالدة التى لا جدال فيها وهى :

وما هى إلا أمةٌ عربيةٌ ∴ موحدةٌ فى فكرة ولسان (٢)

فهذا البيت على إيجازه يلخص كل مقومات الوحدة فى كلمتين : اللغة

(١) ديوان على محمود طه ص٣١٧ ، انظر عروبتنا د/ محمود كامل .
(٢) ديوان على محمود طه ص٣٣٩ .

والفكر [1] . وما أروع كلمة (الفكر) هذه حينما يلقى بها إلينا ، على محمود طه ، لتفتح أمامنا آفاقاً رحبة للتفكير فيها والوصول إلى كل ما يريد أليست وحدة (الفكر) هذه هى وحدة العقيدة ؟ أليست هى وحدة التاريخ ؟ أليست هى وحدة التراث الحضارى ؟

بلى ! إنها ذلك كله وأكثر من ذلك كله .

على أن هذا التحول الخطير فى حياة الملاح من شاعر يتغنى بمشاعره الفردية إلى شاعر يتغنى بمشاعر كل عربى من الخليج إلى المحيط ، لم يكن هذا التحول نوعا من المصادفة البحتة وإنما كان نتيجة لظروف عصيبة فرضت نفسها على الشاعر وعلى الأمة العربية كلها ، إذ لم تكد تسكن العاصفة العاتية التى اجتاحت العالم كله إبان الحرب ، حتى تجمعت بقاياها فى سماء الوطن العربى ، ولم تلبث أن استحالت إعصارا مدمرا يأتى على كل شئ ، ولم تلبث الأرض العربية أن غمرتها وتدافعت عليها أمواج الكفاح والنضال من أجل الحرية والاستقلال .

لقد تحملت الأمة العربية ويلات الحرب أملا فى الاستقلال الذى وعدها به المستعمرون إن هى آزرتهم فى الحرب . ولم يألُ العرب جهدا فى مساعدة الحلفاء الذين لم يكد ينعقد لهم لواء النصر حتى تنكروا لوعودهم ، وضاع صوت الحرية العربية وسط ضجيج مهرجان النصر فى لندن وباريس وبقلوب ملؤها المرارة والاصرار على بذل المهج والأرواح من أجل الاستقلال ، خاض العرب معارك الحرية ، وجرت دماؤهم أنهارا تطهر الأرض الطيبة من رجس المعتدين .

وأمام هذه الصورة المروعة ، لم يكن يسيرا أن يهرب الملاح إلى زورقه حيث يسلم نفسه للنوم الهادئ العميق حتى تنتهى المعركة ، وإنما كان الطبيعى أن نراه يجرى ويلهث ويندر ويتوعد ، ويقذف من فمه حمما من جحيم بعد أن كان يسكب قطرات من شهد .

---

(١) انظر القومية العربية فى الأدب الحديث د/ محمد زغلول سلام .

ولم يخلف ، على محمود طه ، ظننا به ، فسرعان ما اعتمد قيثاره وراح يتنقل بين ربوع الوطن العربى من أقصاه إلى أقصاه فهو تارة على ضفاف النيل يسترجع ماضى مصر العريق ، ويأسى لما صارت إليه أحوالها على أيامه ويستنفر همم أبنائها لإعادة المجد التليد يقول :

فيـا لكِ مـصرُ ! مـا لجـلالِ أمسِ
عَلَـتْهُ غبَرَةٌ وطـوتـهُ حُجْبُ
وأُبهِمَ فـهـو رجْعُ صـدىً وطيفٌ
بعـيـدٌ ليس يسـتـجلِيه قُرْبُ
ذَوت رَيّاً مـلامـحِه وحـالتْ
مذاقـبـهُ فـهـوّ اذىً وثلبُ
أكـان دمُ الفـدائيـينَ صِدْقـاً
وأصبَح هو بَعـد الأمسِ كـذْبُ
فُيـهـدمُ مـا بنى ويقـالُ شـادوا
وتُصـدعُ وحدَهُ ويُقـال رأبُ ؟
عـلامَ اذنْ أريـقَ بكـلّ واد
فـأورق مـجـدب وأنار خـصب ؟
وجـاد به شـبـابٌ عـبـقـرىٌ
وولدانُ كـفـرخِ الطّير زُغْبُ ؟ (١)

(١) ديوان ، على محمود طه ، ص٣٨٩ .

ويخرج من هذه الحسرات ، أو نقول يفيق منها على صورة الحاضر التى تروعه وتفزعه ، فلا يكاد يصدق عينيه ، ويتساءل فى مرارة قائلا :

احـقّاً مـا يُقـال شـيـوخُ جـيلٍ
على أحـقـادهم فـيـه أكبّوا
وكـانوا الأمسِ أرسخَ من جـبـالٍ
إذا مُا زلـزلَتْ قِمـمُ وهُضْبُ
فـمـا لهـمـو وَهَتْ منهم حُلومٌ
لهـا بيـدِ الهـوى دَفْعٌ وجَذْبُ
أأرحـامٌ مـقطّعـةٌ وأرضٌ
تعـادى فـوقـهـا أهلٌ وصَحْبُ
وأسـواقٌ تُبـاع بهـا وتُشْرى
ضـمـائرهُنّ للأهواءِ نَهْبُ
يطوف بهـا النفـاقُ وفى يديه
صـحـائفُ أُفْعِـمتْ زوراً وكُتْبُ
يكاد الليلُ أن يَنْسى دُجـاهُ
إذا نُشِرَتْ ويأخـذَ منه رُعْبُ (١)

ولم يكن ما صارت إليه أحوال مصر من السوء هو كل ما يروع الشاعر بل أن محاولات الاستعمار لتمزيق وحدة وادى النيل والتفريق بين مصر والسودان

(١) ديوان ، على محمود طه ، ص٣٨٩ .

كانت تمثل في نظه خطرا داهماً يهدد مصر بالفناء ويهدد السودان بالوقوع فريسة في قبضة الاستعمار إلى أبد الآبدين . ومن ثم نراه يهتف من أعماقه ويقول :

أخى ! إنْ وردتَ النيلَ قبل ورودى
فـــــحَيَّ ذمامى عنده وعُهُودى
وقَبِّلْ ثرىً فـيــه امــتــزجنا أبوّةً
ونُسلمِهُ لابنٍ لنا وحـــفـــيـــدِ
أخى! إن أذانُ الفجـر لبَّيتَ صوته
سمِعْتَ لتكبـيرى ووقعِ سجـودى
.....
فكيف تُلاحـيلى وألحــاك ؟ إننى
شهيدكَ فى هذا .. وأنت شهيدى! (١)

وهو لا يألو جهداً فى تذكير الشعبين الشقيقين بما يربطهما من أواصر اللغة والدين والتاريخ ، وهو لا يخفى قلقه واشفاقه من أن تتحكم أيد أجنبية دخيلة فى مياه النهر العظيم التى تتدفق فتحمل معها الخصب والنماء حيثما حلت :

سيُجْريه مـا شاءَتْ مطامعُ قومه
ويَحبَسُهُ مـا شـاء خلْفَ سـدودِ (٢)

على أن ، على محمود طه ، لم يكن شاعر وادى النيل فحسب ، وأنما كان شاعر أمته العربية كلها ، لا تكاد تمر به حادثة إلا صاغها شعرا رائعا حتى لنحس

(١) ديوان ، على محمود طه، ص٣٨٥ ، ٣٨٦ .
(٢) ديوان ، على محمود طه ، ص ٣٨٦ .

ونحن نقرأ قصائده القومية أنها تؤلف فيما بينها صورة تفصيلية دقيقة لكل أحداث العصر وما كانت تتعرض له الأمة من المحن والخطوب فهو يلم بقضايا الحرب ويندد بالوعود الزائفة التى يغرى بها الغرب هذه الأمة العظيمة .

ولعل المشكلة الكبرى التى كانت – وما زالت – تواجهها الأمة العربية هى مشكلة فلسطين ، ولم يغب على بال « عن محمود طه » أن السهم الذى يوجه إلى الأمة العربية كلها ، وأن الجرح الدامى الذى أصاب فلسطين هو فى الواقع جرح كبير فى قلب هذه الأمة . وما أسرع ما تحول هذا الإحساس فى نفس الشاعر إلى أنغام عذبة شجية دفعها على قيثارته كلها تأسو هذا الجرح أو علها تخفف من حدته قائلا :

فلسطينُ مـــالى أرى جُرحَهـــا
يســـيلُ ويأبى الغـــداةَ اندمـــالا
تنازُعـــهـــا حـــيـــرةُ الزَّاهدين
وتنـهـــشُهـــا شَهَواتُ ثقـــالا
.....
فـــيـــا للبـــريئةِ مـــاذا جَنَتْ
فتـحـملُ مـالا يُطاقُ احـتـمـالا [1]

وليس هناك شك فى أن قضية فلسطين كانت تشغل جزءا كبيرا من حياة شاعرنا المهندس وتفكيره . وربما لم يظفر قطر عربى من الشاعر بما ظفرت به فلسطين . فلطالما حدثنا عنها ، ولطالما استنفر العرب لاسترداد الوطن السليب .

(١) ديوان « على محمود طه » ص٣٧٨ .

وكأنى به كان يرى فى شعره بوقا يدفخ فيه فيحدث ضجيجاً هائلاً يهز مضاجع الغافلين من أبناء الأمة العربية .

وفى يوم حداد عام فى عواصم الدول العربية . احتجاجا على وعد بلفور المشؤوم ، الذى أراد أن يغتصب فلسطين العربية المسلمة من أبنائها حفيدة الفاتحين الأولين من العرب ليسلمها لقمة سائغة لدعاة « صهيون » الذى ظن أنه قادر على أن يمحو من خريطة الأرض شعبا بأسره وأن يبدل التاريخ سيرته والفلك دورته والقدر مشيئته ، ولكن غلاة المستعمرين من الانجليز اتخذوا من هذا الوعد الآثم ذريعة للفتك بالثوار من أحرار فلسطين ، الذين هبوا يدفعون عن أرضهم ويذودون عن عشيرتهم ، وسالت دماء وخربت ديار ، وأحرقت مراع وأهلكت أنفس ، ظلما وعدوانا وبغيا وطغيانا وفتح الشر أبوابه لما يسمونه الهجرة . وأبيحت فلسطين لكل متسلل من آل صهيون ، هؤلاء الذين يذوق الانجليز اليوم منهم الأمرين بعد أن كثر عددهم واشتد حربا وعذابا . لقد تبرأ من هذه النزعة الصهيونية كثير من يهود مصر الذين نعموا بالسلام والاخاء والرغد آلاف السنين ، وعاشوا مع مسلميها ومسيحيها اخوانا .

ولكن محنة فلسطين لم تنته بعد وها هم أبناؤنا العرب فى أرضهم مضطهدون وزعماؤها فى الغربة مشردون .

وقد نشرت هذه القصيدة صباح ذلك اليوم الحزين ، وقد بدت عواصم مصر وبلدانها مغلقة الحوانيت والمشارب ، ترفرف على دورها أعلام الحداد ، مقفرة الميادين والطرقات إلا من هذه المواكب الغاضبة تدعو العرب إلى النضال والكفاح[1] نذكر منها :

(١) ديوان « على محمود طه » ص٣٨٠ .

فلسطُين لا راعتكِ صيحةُ مُغتالِ

سلمْتِ لأجيالٍ وعشتِ الابطالِ

ولا عزّكِ الجيلُ المُفدىَ ولا خبتْ

لقومك نارٌ فى ذوائب أجبالِ

صَحَتْ باديات الشرق تحت غبارهم

على خلجات الرّوح من تُربكِ الغالى

فوارسُ يستهدى أعِنَّة خيلهم

دمُ العرب الفادين والسؤددُ العالى

.....

هو الشرقُ لم يهدأ بصبح ولم يَطبْ

راقاداً على ليلٍ رماكِ بزلزالِ

غداةَ أذاعوا أنّكِ اليوم قسْمةٌ

لكلّ غريبٍ دائم التَيه جوّالِ

قضى عمره ، جمّ المواطن - واسمُهُ

مواطُنها - ما بين حلٍّ وترحالِ

محا الله وعداً خطّهُ الظلمُ لم يكنْ

سوى حُلُمٍ من عالم الوهم خيّال

هو الشرقُ ألقى عن يديه قيودَه

فلا تحسبيهِ فى قيودٍ وأغلالِ

سليهِ ، نَهِجْ ما بين عينيكِ أرضَهُ

مخالبَ نسرٍ أو براثن رئبالَ

سَليهِ، يُمجْ ما بين سمعيكِ أفقَهُ

زئير أسودٍ او زماجرَ أشبالِ

سَليهِ الدمَ المهراقَ يَبْذُلهُ غالباً

ويضربْ به فى الحقّ أروع أمثال [1]

أبيات مقتطفة من القصيدة .. وهى تنقل إلينا دلالة الموقف الذى يتخذه الشاعر من قضية الإنسان المعاصر ، فى بقعة من بقاع الأرض العربية المناضلة .

إنه موقف شعورى يمثل دفقة التعاطف مع رمز مجسم من رموز تجربة التحرر .

والتجربة هنا : من الناحية النفسية تعتبر تجربة مزدوجة ، يدخل فيها الشاعر كطرف مقابل يشترك فى مضمون الصراع ، ذلك لأن وجه وجوده كإنسان عربى فى مصر ، يحمل نفس الملامح الوجهية لوجود الإنسان العربى فى فلسطين .

فاللغة والتاريخ والتقاليد والأرض وكل أحلام المصير ، هى المكونات الأساسية لوحدة الملامح المشتركة والصانعة لازدواجية التجربة ، هذه المفاهيم القومية لا يكفى أن تكون فى منظار المشاعر نوعا من الحقائق المدركة ، وإنما ينبغى أن تكون فيضا من المشاعر المعاشة ، وإلا لما تحول ، على محمود طه ، من شاعر رومانسى حول محور ذاته إلى شاعر واقعى يهتم بمشكلات الجموع . [2]

(١) ديوانه ، على محمود طه ، ص٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٢) انظر على محمود طه - الشاعر والإنسان - أنور المعداوى ص٨٢ .

والشاعر هنا من خلال هاتف داخلى مقيد يطلق زفرة رجاء بأن تنجو فلسطين من الروع ، وأن تعيش لأبطال اليوم وأن تسلم لأجيال الغد ، رجاء للحاضر ورجاء للمستقبل ورجعة بعد ذلك إلى الماضى البعيد ، على مدار رؤية شعورية رابطة بين مراحل التاريخ .

لقد كانت فلسطين يوما أرض البطولات ، وتحت غبار فرسانها صحت باديات الشرق ، ومن أعنة خيولهم استلهمت الدماء العربية أروع معانى البذل والفداء . والشرق الذى أيقظته أرض البطولات فى الماضى البعيد يستيقظ مرة أخرى فى الحاضر المشهود ، يستيقظ على رجع الصدى من أنين هذه الأرض .

و« على محمود طه ، فى تلك المرحلة التاريخية كان يؤمن فى قرارة نفسه بشيئين : كان يؤمن بأن الشرق العربى قد بدأ مرحلة البعث الانطلاقى من قبضة الاستعمار والعمل الإيجابى ضد القيود المكبلة ، ومهما يكن الطريق طويلا ومليئا بالمشاق ، فأن مواصلة الكفاح كفيلة بتحقيق النصر .

كما كان يؤمن بأن وحدة الآلام المشتركة كفيلة هى الأخرى بتوجيه كل المفاهيم الكفاحية بين أقطار العرب ، وصبها فى قالب عملى مثمر أساسه الاستمرار فى التضحية .

وهذان المعنيان قد طاف حولهما فى هذه القصيدة وفى غيرها مما نظمه فى محنة فلسطين ، وعلى الأخص فى الأبيات الأربعة الأخيرة التى يتهدج فيها صوته الشعرى .

وهو يعرج على الشرق المتحرر ، واستعداده النفسى والمادى لأن يهب لنجدة الأرض وأن يجود فى سبيلها بالدم المراق .

هذان المعنيان اللذان أكثر من حولهما الطواف ، جعلا وجود الإنسان يفيض بالأسى والمرارة ، كلما ركن الشرق العربى إلى تصديق وعود الغرب الكاذبة بحل مشكلاته التى لا تحل بغير نضال . وهنا تتحول ثورة الشاعر إلى العرب حين تجوز عليهم الخديعة أحيانا فيخلدون إلى المهادنة ، انتظارا للوفاء بالعهود ، ونلمح بوادر هذه الثورة فى ديوان (شرق وغرب) فى قصيدته التى وجهها إلى « أبناء الشرق » ممهدا لها بهذه الكلمات : « هزت قضية فلسطين أقطار الشرق العربى وأثارت مواجد العالم الإسلامى ، وهذه القصيدة دعوة الحق يهتف بها الشاعر وهو فى سرير مرضه ، منبها الشرق إلى واجبه حافزا قواه إلى الكفاح والنضال فى سبيل قضيته وقضية الشعوب العربية فى فلسطين وشمال أفريقيا ، فى هذا الوقت الذى تقرر فيه مصائر الشعوب » .

دعـوها مُنىً واتركـوه خـيـالا
فـمـا يعـرف الحقُّ إلا النِّضـالا

بنى الشـرق ! مـاذا وراءَ الوعـود
يظلُّ يميناً ونرنو شـمـالا

ومـا حكمـةُ الصَّمْتَ فى عـالم
تضجُّ المطامعُ فـيـه اقـتـتـالا

.....

فـفـيم وقـوفكمـو تنظرون
غُبـارَ المجلىٰ يَشُقُّ المجـالا

وحـتّام نشكو سـواد الحظوظ
ومن أفـقنا كل فـجـر تلالا !

ألسنا بنى الشـــرق من يعـــرب

أصـولا سـمت وجـبـاها تعـالى !

أجـــئنا نُســـائل عطف الحليف

ونـرقـبُ مـنـه الـنـدى والـنـوالا ؟

.....

هى الشـــرق ، بل هى من قلبـــه

وشـــائج مـــاض تأبى انفـصـــالا

وتاريخ دنيـــا وأمـــجـــادها

بين ركنيـهـا «خـالد» ثم عـالى

.....

تبـارى لهـا المسلمـون احـتـشـادا

وهبّ النصـارى اليـهـا احـتـفـالا

بنى الشـــرق كـــونوا لأوطانكم

قوى تتحدى الهوى والضلالا [1]

فى هذه الأبيات المختارة من تلك القصيدة الثائرة يبدو وجه فلسطين مرة أخرى وقد استحوذ على أكبر جانب من رؤية الشاعر العاطفية .

يبدو كذلك على الرغم من أنه لم يدس فى جولة الشعور القومى – وفى

(١) ديوان ، على محمود طه ، ص٣٧٧ – ٣٩٨ .

الأبيات الباقية من قصيدته – أن يذكر تونس ومراكش وسورية ولبنان ، كحلقات متشابهة الوضع فى سلسلة المصير العربى المعرض لضغط الاستعمار .

من الشـــام والأرز والرافـــدين ∴ وأقـصى الجـزيرة صـحـبـاً وآلا
و(افـريقـيـا) مـا لإسـلامـهـا ∴ يُسـامُ عـبـودية واحـتـلالا ؟!
عـلـي (تـونـس) و(بمـراكـش) ∴ تروح السيـوف وتغـدو اخـتـيـالا

لقد وقفت هذه الشعوب الشقيقة فى وصف الغرب – كما وقفت مصر – خلال الحرب العالمية الثانية ، وليس من شك فى أنها قد لعبت دورا ملحوظا فى انتصاره ، بما قدمت إليه من عون كلفها المزيد من التضحيات . ولقد كان من المنتظر – فى منطق هذه الشعوب التى تقدس شرف الكلمة – أن يفى الغرب بوعوده المتكررة ، فينهى مشكلاته مع الشرق كنوع من الاعتراف بالجميل ، ومن هنا استكان الشرق فترة من الوقت ، كانت من جانب الغرب مرحلة تردد وكانت من جانب الشرق مرحلة انتظار .

ومن هنا أيضا كانت ثورة الشاعر على أبناء وطنه العربى فى مختلف أقطاره ، نابعة من انخداعهم بزيف الوعود من جهة ومن إيمانه العقائدى بأن استرداد الحقوق ميدانه قدرة الأخذ لا استجداء العطاء . وفى حقل هذا الإيمان ، ومنذ البداية استقرت جذور دعوته إلى مواصلة النضال ! انظر إليه عندما يرى زعماء الأمم – الشعوب – العربية الشقيقة فى قصر (انطونيادس) بالاسكندرية يجتمعون لتأليف الحلف العربى المنشود أو الجامعة العربية المرموقة ، فيسرع إليهم بتحية الحب الزاخر بالرجاء البسام ، والذكريات المجيدة ، والآمال المشتركة ، ملبها إلى (فلسطين) الباسلة الماثلة ، وقضيتها الحافلة بالآلام والعبر ويستحلفهم بالله أن يذكروا اخوانهم الذين أخرجوا من ديارهم وسلبت أموالهم بغير الحق ، فيقول :

بالله إن جئتم الوادى وناسمكم

سراه ، بهر أزاهير وأنداء

وطاف بالذكريات الأمسُ واستبقتْ

بالدمع عينٌ ، وبالأشواقِ حوباءُ

فاقضوا حقوق إخاء تستجير به

أخت لكم فى صراع الدهر عزلاءُ

طعامها من فُتات العيش مسبغةٌ

وريها منه إيلامٌ واشقاءُ

أحلّها ذهبُ الشارى ، وحرّمها

عصرٌ به حُرّرَ القومُ الأذلاّءُ

حَرْبانِ أثخنتاها أدمعا ودما

تنزو بها مهجةٌ كلْمى وأحشاءُ

هذى (فلسطين) أو هذى روايتُها

ماذا تقولون إنْ لم يُحسَمِ الداءُ

تطلّعت لكمو ولهى أليس لها

على يديكم من العلّاتِ إبراءُ ؟

حملتمو العهدَ فيها عن أبوّتكم

إنّ البنين لحمل العهد أكفاءُ (١)

(١) ديوان ، على محمود طه ، ص٣١٨ ، ٣١٩ .

ولا يكاد ، على محمود طه ، يذكر بطلا من أبطال العروبة المكافحين فى سبيل تحرير أرضها إلا تمثلت أمام عينيه مشكلة فلسيطن ، وكأن أشباح القتلى الذين استشهدوا على الأرض الطيبة لم يكونوا يفارقون خياله ، وكأنما يلحون عليه إذا تحدث عن بطل من الأبطال أن يستنفر العرب ليأخذوا بثأرهم .

ففى تحيته للبطل السورى ، فوزى القاوقجى ، بعد عودته من قتال مرير دام أكثر من عشرين عاما . تتراءى هذه الأشباح أمام ناظري الشاعر فنراه يعرض لتلك المآساة التى تلطخ جبين الإنسانية فى عصرها الحديث فيقول :

وقـــالوا عـــالَمٌ قـــد جمّلـــوه　∴　فلم يَعْدُ الشناعـــةَ والدمـــامْه
تناثرت الممـــالكُ فـــيـــه حـــتى　∴　لتـــعـــجـــز أن تبين لهـــا حطامْه
مـــتـــاهات تضلُّ بهـــا الليـــالى　∴　ولا يدرى بـهـــــا فلَكٌ نـظامْه
فلسطين الشـهـــيـدةُ فى دجـاه　∴　مفـزَعـةُ الخـواطرِ مـسـتـضـامْه
اقـام المسـتـبـدُ على حـمـاها　∴　فـعـاث بهـا وأفـردها طغـامْه
وجـــــاء بآبقٍ لَفَظَتْـــــهُ دارٌ　∴　وأفّاقٍ يُحـــــــــــمِّلُهـا أثـامْه
أباح لـه عـلـى كـــــيْدٍ جـنـاها　∴　وشـــاطره على خُبثٍ مـــدامْه
وعلمـــهُ الرمـــايةَ واجـتـبـاه　∴　فسـدّد فى مـقـاتله سـهـامْه ![1]

هذه الأبيات مقتطفة من قصيدة طويلة يمثل فيها ، فوزى القاوقجى ، واجهة البطولة لكفاح الإنسان العربى فوق أرض فلسطين فقد تراءى لى من وراء منظار الشاعر كنموذج حى يستحق الإعجاب والتقدير - وهو الإطار البشرى المناسب للصورة التى يجب أن يكون عليها العرب .

(١) ديوان ، على محمود طه ، ص٣٩٦ ، ٣٩٧ .

إن مشكلة فلسطين فى نظره ليست مشكلة شعب اغتصبت أرضه واستبيحت ديارة ونهبت أمواله . إنها مأساة الضمير الإنسانى كله ، ووصمة عار فى جبين العالم المتحضر . ، على محمود طه ، فى كل شعره القومى يكشف لنا عن شعوره الأصيل بعروبته ، من خلال إيمانه الذى لا يحد بماضى هذه الأمة وإبائها على الضيم ومقدرتها على البذل والفداء . ومن نبع هذا الشعور كان يغترف ثقته بامتدادها المعنوى عبر العصور ، متمثلا فى أجيالها المتعاقبة التى انبثق منها ذلك الجيل الذى عاش فيه .

من هنا نراه وقد امتلأت نفسه بالثورة ، كلما مرت بحاضر هذه الأمة فترة من فترات التقاعس عن مواصلة الكفاح لأن هذا التقاعس فى رأى عقيدته يتنافى وطبيعة الإنسان العربى أو يبدو وهو غريب بالنسبة إلى حقيقته النفسية . وحين بلغ هذا التقاعس يوما أدق معانيه وأخطر مظاهره ، أطلق شاعرنا أضخم صيحاته الثائرة والمنذرة فيقول :

أخى جاوز الظالمون المدى ∴ فحق الجهاد وحُقَّ الفدا
أنتركهم يسلبون العروبة ∴ مجد الأبوة والسؤددا
وليسوا بغير صليل السيوف ∴ يجيبون صوتا لنا أو صدى ؟
فجرد حسامك من غمده ∴ فليس له بعد أن يغمدا !
سكتنا على غدرهم قادرين ∴ وكنا لهم قدرا مرصدا
طلعنا عليهم طلوع المدون ∴ فطاروا هباء وصاروا سدى
أخى أيها العربى الأبى ∴ أرى اليوم موعدنا لا الغدا
أخى أقبل الشرق فى أمة ∴ ترد الضلال وتحيى الهدى
فهيا إلى قبلة المشرقين ∴ لنحمى الكنيسة والمسجدا

يسوع الشهيد على أرضها ∴ يعانق فى جيشها أحمدا
أخي أن جرى في ثراها دمى ∴ وأطبقت فوق حصاها اليدا
فقبل شهيدا على أرضها ∴ دعا باسمها الله واستشهدا
فلسطين يفدى حماك الشباب ∴ فجل الفدائى والمفتدى
فلسطين تحميك منا الصدور ∴ فإما الحياة وإما الردى ! (١)

أطلق شاعرنا هذه الصيحة الملتاعة الغاضبة ، بعد أن أخرج العرب من ديارهم فى فلسطين ، وكان ذلك فى شتاء عام ١٩٤٨ . كان يحلم فى حياته بطرد اليهود من أرض الآباء والأجداد ، ويهيب فى شعره بأبناء قومه – ورثة النضال عبر الماضى العريق – أن يحققوا على المدى القريب حلمه الكبير .

فإذا به يصحو من نشوة الأحلام على قسوة الواقع ليرى بعينه إن الذين طردوا هم أصحاب هذه الأرض ، وانهم بعد هذا اليوم الأسود – قد غدوا وهم مجردون من ثراء الشعور بنعمة الوطن .

وهاله ما حدث – وعن طريق لغة الشعر الملتهبة فى ذلك الحين – مضى يصرخ من جديد فى وجوه العرب ، ليهبوا من هذا السبات الذى شارك فى صنع المحنة . ليس هناك بعد اليوم مجال للتردد إن اللحظة الحاضرة لا المقبلة هى لحظة الانتفاضة وموعد الثورة وهو يخاطب الأخ العربى فوق ثرى الأرض العربية فى كل مكان ، الأخ المسيحى والأخ المسلم .

إن العروبة فى محنتها قد غدت وهى الدين القومى لهذا وذاك ، ومن أجل هذا الدين الذى يجمع على البذل والتضحية كل المسيحيين وكل المسلمين ، تصبح

(١) ديوان ، على محمود طه ، ص٣٧٨ .

المبادرة إلى نجدة الأرض ، ولم تمض شهور على إذاعة القصيدة بوسائل النشر والغناء ، حتى هبت الجيوش الرسمية للدول العربية لتسترد أرض فلسطين ، ومنذ بداية المعركة إلى أن أصبح العرب على أبواب « تل أبيب » كانت قصيدة « على محمود طه » (المغناة) تنطلق من كافة دور الإذاعة العربية ، لتلهب شعور المواطنين على حد سواء .

ولقد كان شاعرنا أكثر الناس فرحا بأن حلمه الكبير قد أوشك أن يتحقق عندما كان يستمع إلى الأنباء الواردة من ميدان القتال وهى تؤكد صدق قوله فى شجاعة اليهود الوهمية :

طلعنا عليـــهم طلوع المدون ∴ فطاروا هبـاء وصـاروا سـدى !

ولم يكن يعلم – وهو فى غمرة الشعور بالنصر – إن عناصر الخيانة من صنائع الاستعمار كانت تعمل فى الظلام لتطعن النضال العربى من الخلف ، وتمهد الطريق للهزيمة .

ومع ذلك فإن شاعرنا العربى – وهو مثخن النفس بالجراح – لم يئس أن يطل وراء جراحه على بقعة معينة من أرض فلسطين ، إن ابتسامة الإحساس بالنصر – على الرغم من كل ما حدث – ما تزال تجد لها مكانا على فم وجوده .

لقد كانت (الفالوجة) تلك البقعة المعينة من الأرض المقدسة هى ضمادة العزاء التى وضعها وهو فخور فوق مكان الألم . هذه القرية الصغيرة ، كانت البوتقة النفسية التى انصهر فيها معدن الجندى المصرى البطل ، وهو يدافع عن شرف ماضيه وحاضره وتاريخه الطويل .

لقد حوصر الجندى المصرى فى (الفالوجة) فى أثناء معركة فلسطين ،

نتيجة للخيانة وأمر بانسحاب عدد من الجيش العربى من جبهة القتال . ولقد ترتب على هذا الإنسحاب المفاجئ أن انكشفت مواقع جنودنا المصريين فاحكمت من حولهم حلقة الحصار وتعرضوا لهجوم مستمر من الأرض والجو .

وثبت الجندى المصرى البطل رغم قلة عدده وكثرة تضحياته ، وأبى أن يستسلم ، كان صموده وإباؤه وصلابته تمثل أروع الخطوط فى أجمل لوحة شرف ، يمكن أن تزين بها جدران التاريخ القومى للأمة العربية .

ومن خطوط هذه اللوحة وألوانها المشرقة ، استمد شاعرنا (المصرى) مضمون هذه القصيدة يوم أن عاد أبطال (الفالوجة) ورؤوسهم مرفوعة ، إلى أرض الوطن يومها خاطب ، على محمود طه ، أبطال وطنه العائدين بهذه الكلمات :

أقوم فداك حديدها ولهيبها ∴ واغدم مجادها فأنت ربيبها
مجد الفتوح الغر أنت وريثه ∴ والحرب أنت على المدى موهوبها
ما الحرب إلا ما شرعت وما رأت ∴ أمم تزود عن الحقوق شعوبها

....

وملاحم الأبطال فى ، فالوجة ، ∴ قصص الكفاح غريبها وعجيبها
، هومير ، ما غنى بها طروادة ∴ وكمثلها ما أهمته حروبها [1]

هذه أبيات مقتطفة من قصيدة عنوانها ، موكب الأبطال ، إنها آخر قصيدة نظمها الشاعر قبل أن يموت ، متوجا بها أشعاره القومية .

(١) ديوان ، على محمود طه ، ص٣٢٢ ، انظر الشاعر والإنسان لـ / أنوار المعداوى .

ويلاحظ هنا إنه موصول الأواصر - كالعهد به دائما - بعروبته وماضيه .

فهو وإن كان يتحدث عن بطولة الجندى (المصرى) فى مجال الفخر بقوميته الخاصة ، إلا إنه يربط هذا الفخر بجذور قوميته العامة حين يرد البطولة إلى مصدرها التاريخى الأصيل على ضوء الأمتداد الوراثى لمجد الفتوح العربية فى زحمة الأحداث ومن خلال تجارب النضال - سواء أرجت وجوده بدوى النصر أم بدوى الهزيمة - لم ينفصل يوما عن تلك الجذور العميقة الضاربة فى أعماق التاريخ .

فمن شرف المحارب العربى - والجندى المصرى صورة من صوره - إن يعف سلاحه عن العدوان ، وإذا ما لوح بهذا السلاح فى وجه أعداء الحياة ، فلكى يجير شعبا من الضيم أو يحرر أمة من القيود .

على مدار هذا المعنى الإنسانى يعبر ، على محمود طه ، عن إعزازه وإكباره للجندى المصرى البطل الذى ضحى عن طيب خاطر من أجل فلسطين . ولقد شاءت إرادة الله أن يكون صوت فلسطين هو آخر لحن يصدره عن قيثاره الذى طالما أطرب الجماهير . ففى آخريات أيامه تعود القوات العربية المقاتلة من (الفالوجة) بعد أن ضربت أروع الأمثال فى البطولة والفداء .

وكثيراً ما تمنى الشاعر أن يرى جيشا وحناجر تهتف ، وأيدى تصفق وزهورا تلقى من الشرفات فوق رؤوس مرفوعة ، وعاش حتى رأى هذا المنظر الذى تمناه هنا فوق أرض الوطن ، وأمام ، موكب الأبطال ، ووسط الجماهير المحتشدة للقائه يقف ، على محمود طه ، ليحيى فيهم روح البطولة النادرة فيقول :

يا أيهـا الأبطال مـصـر إليكمـو ∴ بالغار يستبق الشبيبة شيبها
وعـقـائل خلف الخـدور هواتف ∴ كـالطيـر أذن بالصـبـاح هبـوبها
يبشـرن بالريحـان فـوق رؤوسكم ∴ طاقـات ورد ليس يذهب طيبـهـا
وعلى طريق المجد من (فـالوجـة) ∴ مـهج حـوائم فى التراب وجـيبـها
شـهـداؤكم ودوا هناك لو أنهم ∴ قـدمـوا بألوية يروع خـضـيبـهـا
هاتوا حديث الحرب كيف تطامنت ∴ بكمو مـفـازعـهـا وهان عـصـيبـهـا
فى قـرية مـحـصـورة كـسـفـينة ∴ فى لجـة هاجت ومـاج غـضـوبها

....

وبمصـر والدنيـا عـيـون أحـبـة ∴ السـهـد والألم الممض حـبـيـبـهـا
إيه حـمـاة الشـرق كم بجـهـادكم ∴ تشدو العصور بعيدها وقريبها [1]

الجيش القوى الذى كان يحلم أن يراه فى صورة معينة – رأتها عيناه واستقرت فى ذاكرته عندما رأى منظر إحدى جنود الدول العربية المنتصرة عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية فتحول لديه المنظر فى رؤيته الشعورية إلي أمنية عزيزة ، كان أول أمنية من أمنياته . كان قلبه موزع العاطفة بين وطنه العربى فى مـصـر وأوطانه العـربيـة الأخـرى فى فلسطين ، سورية ، لبنان ، السودان والمغرب ، كان يعيش تجربة القيد وتجربة الحرية لكل وطن من هذه الأوطان ، ولم تكن المناسبة القومية هى التى تملى عليه قوميته ، وإنما كانت المعايشة النفسية هى التى تمليه .

المعايشة النفسية للأحداث التى تضطرم من حوله هنا وهناك ، وتصنع مصيره كواحد من أبناء الأمة العربية المدركين بتجاربهم وثقافتهم مقومات هذا المصير .

---

(١) ديوان على محمود طه ص٣٢٢ ، انظر ، على محمود طه ، الشاعر والإنسان ، أنور المعداوى ، ص٩٥ .

نعم ! لم تكن المناسبة أكثر من وعاء تاريخى يصب فيه مشاعره النفسية والتى جاء وقتها لتتدفق وتفيض .

ومن هذه الزاوية أيضا نفهم سر إعجابه بل وإفتتانه بكل نموذج بطولى ينبثق من أرض وطنه العربى الكبير ، لأن هذا النموذج يمثل كما قلت واجهة العرض البشرية لنضال الأمة كانت هذه الواجهة فى (فلسطين) هى « فوزى القاوقجى » ، وكانت فى (مصر) جندى « الفالوجة » ، وكانت فى (سورية) هى « يوسف العظمة » ، وكانت فى المغرب « عبد الكريم الخطابى » . كما كان شعره واجهة عرض فنية لكل هذه الواجهات .

ففى سوريا ، ولبنان كانت جيوش الفرنسيين تصب على الشعب سيلا من جحيم ، ويتطلع الملاح فيرى رءوسا تتطاير وأشلاء تتناثر ، وأرواحا تزهق ، ودماء تسيل رخيصة من أجل الحرية والاستقلال .

فكان « يوسف العظمة » ذلك البطل الصنديد أول مستشهد فى المعركة وكان استشهاده رمز الوفاء ومثل الفداء ، وأول جذوره نفحت نارها فى الثورة الوطنية السورية التى انتهت أخيرا بتحرير الوطن من ربقة الاستعباد . إن ذكرى شهيد ميسلون أجمل تحية يقدمها الشعر القومى اليوم لدمشق المحررة المستقلة على لسان الشاعر المصرى « على محمود طه » فيقول :

هى صيحةُ الوطن الجريح وأمةٍ ∴ هانت على سيفِ المغير الطامحِ

.....

(١) فى فجر يوم ٢٤ يولسو ١٩٢٠ سار إلى ساحة ميسلون القائد السورى العظيم « يوسف العظمة بك » مدافعا عن دمشق بما أمكن حشده من جنود سورية البواسل مواجها هجوما مفاجئا لجيش فرنسى يفوقه أضعافا أضعافا فى العدد والعتاد فكان أول مستشهد فى المعركة .

يا (مـيـسلون) شـهـدتِ أى روايةٍ ∴ دمـــويةٍ ، ورأيت أىَّ مـــذابحِ
ووقـفتِ مُـثـخَنَةَ الجـراح بحـومـةٍ ∴ مـاجتْ بـبـاغ فى دمـائكِ سـابحِ
تتـأملين (دمـشقَ) يا لهـوانهـا ! ∴ ذاتُ الجـلالة تحت سيف الفـاتحِ !
جـرَّتْ حَديد قـيـوديهـا وتقـدَّمتْ ∴ شُمـاءَ من جُلّادها المتـصـايحِ
نسيَتْ أليم عـذابهـا وتذكـرتْ ∴ فى (مـيـسلون) دم الشـهـيـد الذابحِ
من هبَّ فى غسق الظلام يحوطها ∴ بذراع مـقـتـتلٍ وصـدرٍ مُكافحِ

.....

يا (يوسف) العظمات غرسُكَ لم يضعِ ∴ وجَناهُ أخلدُ من نتـــاج قـــرائحِ
قمْ لحظةً وانظرْ (دمـشق) وقل لهـا ∴ عـاد الكميُّ مع النفـيـر الصـادحِ
ودعـاك يا بنتَ العـروبةِ فـانهـضى ∴ واستقبلى الفجرَ الجديدَ وصافحيِ ![1]

هذه أبيات من قصيدة قيلت بمناسبة استقلال (سوريا) لم ينظر شاعرنا إلى المناسبة على إنها واجب قومى يخشى أن يُنتقد إذا لم يقم نحوه بواجبه الفنى ، كلا إنما المناسبة كما قلت لم تكن أكثر من وعاء تاريخى لشعور التقدير المختزن فى النفس لرائد الكفاح السورى . وقد آن أن يصب هذا الشعور فى ذلك الوعاء ، ومن جهة أخرى فلأن ، يوسف العظمة ، يعد ذلك هو القسمات الأصلية لوجه الأمة السورية فى أكثر الأوضاع امتيازاً بالنسبة إلى عدسة التصوير القومية .

ومن ، يوسف القعيد ، – وفى نفس هذه الدائرة القومية انتقل إلى بطل الكفاح المغربى ، عبد الكريم الخطابى ، : هذا البطل العربى أمير الريف ... دفعته حميته وإباؤه إلى الثورة على الاستعمار الأسبانى فى بلاده ، فى حرب أشبه

(١) ديوان ، على محمود طه ، ص ٤١٢ .

ما تكون بأساطير الأبطال الأولين ، فمزق الجيش الأسباني وأسر قائده ، وألقى به إلى البحر ، فلما أوشك أن يقضى عليه القضاء الأخير ، تنبهت فرنسا المستعمرة إلى ما يصبها بدورها من استفحال خطر هؤلاء العرب البواسل أسياد البلاد الغربية الذين يعملون تحت قيادة الأمير الخطير « عبد الكريم » ، فعملت من جانبها على اشعال الحرب بينها وبينه ، فدفع الجيش الفرنسى وهزمه شر هزيمة ... غير أن إرادة الله أصابت الريف بقحط شديد فامتنع نزول المطر زهاء أربعة أعوام ، فضعفت موارد الأمير .

وانتهزت فرنسا هذه الفرصة فعرضت عليه الصلح والأمان (كتابة) ولكنها نقضت عهدها وغدرت بميثاق الأمان ، وأخذت الأمير المجاهد أسيرا ، ونفته عن وطنه لمدة عشرين عاما ، حتى أتاح له الله فرصة النزول ببورسعيد من السفينة ، وهى فى طريقها به إلى منفى جديد بفرنسا .

وعمت الفرحة أرجاء الشرق لنجاة هذا البطل العظيم وعودته إلى حياة الحرية ، وأبت مصر – شعبا وحكومة – أن تعيده إلى أسر فرنسا رغم التهديد والوعيد .

ووقف العالم العربى أجمع وراء مصر الأدبية ، وبذلك أنقذت النخوة العربية أحد أبطالها الذين كافحوا الاستعمار وصاولوا الاستعباد بقوة الإيمان وحد السيف .

هذه أبيات قدم بها الشاعر لقصيدته (بطل الريف) نذكر منها :

الأهلُ أهلُك ، يا أميرُ ، كما تَرَى ∴ والـــــــدَّارُ دارُكَ قُبَّةً وعِمَادَا

أنّى نَزَلْتَ بمصرَ أو جارَاتِهَا ∴ جـــــئتَ العُروبَةَ أُمَّةً وبِلادَا

مَدَّتْ يَدَهَا ، واحتَوتك بصدرها ∴ أَمٌ يَضُمُّ حنانُهـــــــا الأولادا

ولو استطاعت رَدَّ ما استودعتها ∴ ردَّتْ عليك المَهْدَ والميـــــلادا

.....

حَنَّ الحسامُ لقَبْضَتَيْكَ ، وحَمْحَمَتْ　∴　خيلٌ تُقَرِّبُ من يديك قِيادا
وعلى الصَّحَارَى من صَدَاكَ مَلاحِمٌ　∴　تُشْجِى النُّسورَ وتُطرِبُ الأسادا
أوحَتْ إلى العُرْبِ الحُداءَ ، وألهمتْ　∴　فُرسانهم تحت الوغى الإنشادا
(عبدَ الكريم) أنظُرْ حيالك هل ترى　∴　إلاَّ صراعاً قائماً وجهادا
الشرق اجمعَهُ لواءٌ واحدٌ　∴　نَظَمَ الصفوفَ وهيَّأ القُوَّادا
لم يترك السيفُ الجوابَ لسائلٍ　∴　أو يَئِسَ من مُترقِّبٍ ميعادا

.....

فصْغ البيانَ به ، وانْطِقْ حدَّهُ　∴　يَسْمَعْ إليكَ ، مكرراً ومُعادا
كَذَبَتْ مودَّاتُ الشِّفاه ولم أجدَ　∴　رغم العداوة كالسيوف وِدادا (١)

شاعرنا فى ختام هذه التحية لبطل الريف ، يبدو للنظرة المتأملة أنه يكرر نفسه ، أو يردد بعض أغراضه ومعانيه ، يبدو هكذا وهو يدعو إلى التلويح بالسيف – رمز القوة والمقاومة – فى وجه الاستعمار .

الحق أنه ترديد وتكرار ، ولكنه الترديد الهادف إلى غاية معينة وليس هو الترديد الناتج عن فقر الرصيد الفكرى فى شعره ، إنك حين تردد دعوة بذاتها أو نداء بعينه إلى الجموع ، وهى أمام مشكلة واضحة المعالم محددة الأبعاد فمعنى ذلك أن من بين الحلول المقترحة لمواجهة المشكلة حلاً واحدا لا مفر منه ، إذا كان هذا الحل هو الطريقة العملية التى تضمن لتلك الجموع أفضل النتائج . ولقد أثبتت كل التجارب النضالية للشعوب أن لغة المساومة والمهادنة والتفاوض ليست هى اللغة البليغة المقنعة لمنطق الاستعمار .

(١) ديوان ، على محمود طه ، ص٤٠٣ .

وإذن فليس أمامنا لنقنع هذا المنطق أو نفحمه ، غير لغة واحدة هى لغة القوة ، انها الحل الوحيد ، ومن واجبنا أن نكرر الدعوة إليه ونردد النداء ، وهدفنا من وراء الترديد أن نذكر الناسي وننبه الغافل ونحذر من اللجوء إلى غيره من الحلول .

إن مودة الشفاه كما يقول الشاعر ، ويعنى بها لغة المهادنة والمساومة وتصديق الوعود المزيفة هى مودة كاذبة ، ولن تصدق فى هذا المجال غير مودة السيف لأنها لغة الأقوياء وبهذه اللغة دأب الإنسان العربى الثائر فى مصر .

وفى هذه المرحلة الطويلة الطائفة بمختلف أقطار العروبة ، وعلى جناح التعاطف والتجاوب مع مشكلات الجموع ، يصل « على محمود طه » إلى السودان كتعريجة لابد منها فى منعطف الطريق لقد كانت هناك دعوة إلى الوحدة بين السودان ومصر ، ولكن صنائع المرجفين ودسائس المستعمرين التى خدع بها بعض أبناء الجنوب ، اندفعت تناهض هذه الدعوة وتشكك فى حقيقتها المؤمنة ، وتبذل شتى الجهود لإشاعة الفرقة بين القطرين الشقيقين .

وازاء هذه النكسة القومية أطلق شاعرنا إحدى صيحاته الضارعة والمحذرة ، إلى أخيه فى العروبة ، وفى الدين ، وفى النيل من ثنايا هذه الأبيات التى اقتطفها من قصيدة عنوانها (من ابن الشمال إلى ابن الجنوب) نذكر منها :

أخى إن جفَّاك النهرُ أو جفَّ نبعُهُ ∴ مشى الموتُ فى زهرى وقصَّف عودى
أخى وكلانا فى الأسار مكَبَّلٌ ∴ نُجرُّ على الأشواقِ ثُقْل حديدِ
إذا لم تُحرِّرنا من الضيم وحدةٌ ∴ ذَهَبْنا بشملٍ فى الحياة بديدِ
وما مصرُ والسودانُ إلاَّ قضيَّةٌ ∴ مُوحَّدَةٌ فى غايةٍ وجهودِ (١)

(١) ديوان « على محمود طه » ص٣٨٥ .

وهكذا كان « على محمود طه » شاعر القضية العربية إن جاز هذا التعبير . فقد آثر أمته بأعذب ألحانه وأشدها وقعا فى النفوس وأصبح شاعر الجماعة بحق فهو يذوب فى الجماهير العربية يدق طبول النصر للعائدين من ميادين القتال ظافرين ، ويطلق النواح والعويل على شهدائها الذين قدموا أرواحهم فى ساحة الشرف والخلود .

وهو فى هذا وذاك لا يكف عن التغنى بآمال الأمة وآلامها . ولكنه لا يقف من هذه الآمال والآمال موقف المتفرج أو المصور ، وإنما يتقدم ليرسم لأمته طريق المجد والحرية والخلاص من براثن الاستعمار والطريق الوحيد فى نظره هو طريق القوة التى تُخشى وتُهاب .

وماذا يفيد الرأى لا سيف عنده ∴ وما ذا يصيب القول يوم طعان ؟
على البأس فابنوا ركنها وتأهبوا ∴ بمستقبل من حولها متفانى
تلاقى به رايات كل شعوبه ∴ وأسيافهم من صلبة ولدان
كأمواج بحر زاخر متلاطم ∴ ينابيعه شتى ذرى ورعان [1]

وهو يكرر هذا المعنى كثيرا ويصبه فى قالب نكاد نلمسه بأيدينا إذ يقول :

لم يترك السيف الجواب لسائل ∴ أو يدس من مترقب ميعادا
سالت حلوق الهاتفين دما وما ∴ هزوا لطاغية الشعوب وسادا [2]

والآن ، وبعد أن صحبنا الملاح التائه فى شعره القومى ، وبعد أن استوحينا أشعاره فى محاولة لرسم صورة لمراحل القومية التى عاشها والتى انسابت تعبر عن نفسه مع انسياب تيار قومى أصيل .

---

(١) ديوان على محمود طه ص٣٩٥ .
(٢) ديوان على محمود طه ص٤٠٣ .

الآن ، ينبغى لنا أن نتأمل هذه القومية ونستشف كنهها ونستجلى ملامحها ونقف على أبرز خصائصها ومقوماتها بين الملاح التائه ، على محمود طه ، وشاعر المدرسة الكلاسيكية (على الجارم) .[1]

ويحدثنا ، أنيس المقدسى ، فى كتابه (العواصف القومية) عن نشوء فكرة العروبة فى الأدب العربى الحديث فيقول :

« لا أعرف فى تاريخ أدبنا الحديث فكرة تداولتها الألسن والأقلام ، وتقلبت معانيها مع الأيام ، كتلك التى تتجلى لنا فى لفظة خماسية الأحرف ظهرت فى أدبنا أواخر القرن الماضى فكانت فيه أشبه ببذرة ألقيت فى تربة جيدة ، فنمت ومازالت تنمو فى الخمسين سنة الأخيرة حتى أصبحت الآن دوحة عظيمة وارفة الظلال – يستظل بها فى الشرق العربى بضع دول وعشرات الملايين من الناس . هذه اللفظة الخماسية ، بل هذه الدوحة الفكرية العظيمة هى (العروبة) .[2]

وظل هذا الشعور راسخا ، حتى كانت الحرب العالمية الثانية ، ١٩٣٩م – ١٩٤٥م ، التى حارب العرب فيها مع الحلفاء ، ثم كان جزاؤهم بعد انتصار الحلفاء أن مزق الاستعمار الغربى أرضهم وتوزعها بين دوله . إذ ذاك صحوا على صدمة قاسية دفعتهم أن يتنادوا بضرورة التجمع ، لمواجهة الأخطار المحدقة بهم ، وليكون لكلمتهم وزن فى المجال الدولى ، وكان من أثر ذلك أن التقى زعماؤهم بالأسكندرية فى الفترة بين (٧ من مارس إلى ٢٥ من سبتمبر سنة ١٩٤٤م)

---

(١) هذا الشاعر الذى ولد برشيد سنة ١٨٨١م ، وتربى تربية دينية لغوية ، فى الأزهر ودار العلوم ثم سافر فى بعثة للدراسة فى انجلترا ، هيأت له أن يطلع على قسط كبير من الأدب الانجليزى ، وأن يطعم ثقافته العربية بالثقافة الغربية وعاد ليتقلب فى وظائف التربية والتعليم ، حتى كان مفتشاً أول للغة العربية ، ثم كان بعد ذلك عميدا لدار العلوم وأخيرا عضواً فى المجمع اللغوى ، وديوانه الشعرى حافل بالقصائد القومية وتوفى سنة ١٩٤٩م .

(٢) أدب المقارمة (عباس خضر) ص٥٥ .

لوضع أسس الجامعة العربية . واستثارت مناسبة وضع أسس القومية ، وملكت على كل من « على محمود طه » ، و« على الجارم » أطار نفسهما ، فأنشأ كل منهم قصيدته فى حفل تكريم الزعماء العرب . فنذكر من قول الشاعر « على الجارم » فى وضع أسس الجامعة العربية الذى ألقاها بالإسكندرية :

سَنَا الشَّرق مِنْ أَىِّ الفَرَادس تَنْبَعُ ؟ ∴ ومَنْ أىّ آفـــــــاقِ الـنُّبْوةِ تَنْبَعُ ؟
وفـى أَىِّ أطواءِ الـقـــــرونِ تَنَقَّلَتْ ∴ بمصبَـــاحكَ الدنيـــا يُشَبُّ ويَسْطَعُ ؟
طَلَعْتَ على الأهرام والكونُ هامـــدٌ ∴ وأَشـــرقْتَ بالإلهـــامِ والناسُ هُجَّعُ
طَلَعْتَ شُعَاعـاً عـبـقـريًّا كـأنَّمـا ∴ من الحقِّ أو نورِ البـــصـــائر تَسْطَعُ
وجَمَّعت أسرار العقول فهل دَرَتْ ∴ مـــخـــابئُ فِرْعَوْن بما كنت تجـمعُ ؟
وَجَمَلَتْ أفْقَ الشرقِ والأرضُ كُلها ∴ سُهُوبٌ تضِلُّ العين فـيـهنَّ بَلْقَعُ ؟ (١)

ونرى هنا سيطرة جو الانبهار بحضارة الشرق – على الشاعر (على الجارم) – فى عراقتها وعظمتها ، ونراه يطوى القرون بخياله ، ليطالع سنا هذه الحضارة فى إشراقته الباكرة على الأرض ، حتى إذا ما تجلى هذا السنا له أخذ يناجيه .

وفى هذه النجوى تأخذه الدهشة ، حتى ليتخيل إنه ليس سنا عاديا ، وأنه بما فيه من ملامح القداسة والطهر – لابد أن يكون صادراً من الجنة أو من أرض النبوة لتسعد به البشرية وكانت مصر أول بلد سعد بإشراقته ، واستنار به فى العلم ،

---

(١) ديوان على الجارم جـ٤ القاهرة ١٩٤٧م .
سنا : السنا الضوء الساطع – الفراديس : جمع فردوس : احدى الجنات – يشب : يوقد – الكون هامد : خامد لا حضارة له – هجع : نوم ، جمع هاجع – نور البصائر : نور القلوب الذى يشع بالفطنة والإلهام – سهوب الصحارى : جمع سهب ، بلقع :قفر : لا ماء به ولا نبات .

والفن ، وفى مختلف نواحى الحياة وفى وقت كانت الأرض خالية من كل معلم للحضارة والعرفان .

وفي هذا المعنى ينطلق : (الملاح التائه) وقد عاصر الحرب العالمية الثانية وشغلت هذه الحرب سنوات عديدة من عمره ومن ثم نراه يضيق بالأرض ويفزع إلى السماء يلتمس فيها ملجأ يأوى إليه ويعيش فيه بمنأى عن كل إثم وشر ، فى رحاب عالم الطهر والخير والعفاف وليس قصيدته التى ألقاها فى سبتمبر من عام ١٩٤٤م عندما اجتمع زعماء العرب فى مصر الشقيقة فى قصر (انطونيادس) بالإسكندرية بدعوة من الزعيم الوطنى العظيم ، مصطفى النحاس باشا ، لتأليف الجامعة العربية المرموقة إلا تعبيرا عن هذه الفكرة : فيقول :

هذى سماؤكِ أنغام وأضواءُ ∴ غنّاكِ (داودٌ) أم حياكِ ، سيناء ،
أم النبيون قد أزجت سفائنهم ∴ موعودةٌ من ليالى النيل قمراء
أم طالعتكِ من السحر القديم رؤىً ∴ يشدو بهن الثرى والريحُ والماءُ
أم جاء ، طيبة ، من أربابها نبأ ∴ أم أن كهّانها بالوحى قد جاؤوا
أم سار ، عمرو ، بدور الفتح فائتلفتْ ∴ به زبرجدةٌ فى الشطِّ خضراءُ
ماجتَ خمائل بالبشرى وأوديةً ∴ فهن فاكهةٌ تندى وصهباءُ (١)

بهذا كله ظهرت سماء الأمل وجمل الملاح أفاق الشرق بكل معالم الخير والحق والجمال ، نعم والجمال ، ولا غرو فهو شاعر الرومانسية شاعر الطبيعة وأخيراً شاعر القومية .

---

(١) ديوان ، على محمود طه ، ص٣١٦ .
سفائنهم : سفن : جمع سفينة – الثرى : التراب الندى (المبلل) – خمائل : جمع خميلة : الشجر الملتف .

ويمضي الشاعر ، على الجارم ، مع السنا الذى استولى على لبه ، فرحا بدوره ، وقد أخذت تباشير تلوح فى جنبات الشرق قائلا :

سَنَا الشرق أَشْرِقْ ، وأبعث النور ساطعاً ∴ يشق دياجير الظلامِ ويَصْدَعُ
أعِدْ شَمْسَكَ الأُولى إلى الأُفْقِ مثلماً ∴ أعاد ضياءَ الشمسِ للأفقِ يوشعُ
نزفنا دُموعَ المُقلتين تَفَجُّعا ∴ فهل مرةً أجدَى علَيْنا التفجُّع ؟
وعشنا بآمالٍ كأَطياف نائمٍ ∴ يروِّعها مِنْ دَهْرنا ما يَرَوِّعُ
شُعَاعُكَ تاريخٌ ونُورُكَ حِكمةٌ ∴ ولَمْحُكَ آمالٌ ونهْجُكَ مَهْيَعُ
إذا ضيَّعَ التاريخ أبناءُ أُمةٍ ∴ فأنفُسُهم فى شِرْعَةِ الحقِّ ضيَّعُوا (١)

وهنا يناشد الشاعر هذا السنا أن يعود إلى اشراقته ، ويبعث بأشعته ساطعة قوية ، تبدد حلك الظلام به ، وتقشع حجبه ، وسدوله ، ويبين أن عودته بعد مغيبه عن الأفق ليس شيئا عجيبا . إن عودة السنا فيه حياة الشرق ، لأن شعاعه يحمل ذكريات تاريخ طويل عريق وفى نوره حكمة العلم والنبوة ، ومع لمحاته بشائر الآمال ، والطريق الذى يهدى إليه واضح مستقيم ، وليس من اليسير على أمة أصيلة أن تغفل تاريخها وما فيه من مُثل ؛ لأنها بذلك تضيع نفسها ضياعا لا نهوض معه .

ومن الطبيعى أن يفرح الشاعر بهذا السنا ، ويتمنى عودته ، بعد أن مرت بالشرق آلام قاسية ، نزف فيها الدموع تفجعا على ما صار إليه دون أن تغنى عنه هذه الدموع شيئا .

---

(١) يوشع : يوشع بن نون فتى (موسى عليه السلام) قاتل الجبارين يوم الجمعة فلما كانت الشمس بالمغيب خاف أن تتوارى قبل أن يفرغ منهم ، فدعا ربه أن يردها فردها حتى فرغ منهم .
المقلتين : العينين ، والمقلة : شحمة العين التى تجمع البياض والسواد . مهيع : واضح . شرعه : المذهب .

ويصحبنا (الملاح) فى تلك الفترة من الزمان إلى أرض السلام لينقل إلينا مشاعر الأمل والألم وليرينا صورة الرجاء بعد اليأس ، وتلوح فى سماء العالم بارقة أمل فى سلام يظل البشرية التى أنهكتها الخطوب وطال عليها أمد الشقاء فيطل الشاعر برأسه من الزورق قائلا :

يا مصرُ ، ذلك يوم الملتقى ، وعلى ∴ صَبَاحه قَدِم الرُّسْلُ الأجلاَّءُ
أسرتْ إليك بهم روحٌ وعاطفةٌ ∴ وكم إليك بسرِّ الروحِ إسراءُ
دعا ، فلبوه ، صوت من عروبتهم ∴ كما يلبى هتاف الأم أبناءُ
لا بل أهاب بهم يومُ صنائعهُ ∴ من أمرِها الناسُ أمواتٌ وأحياءُ
إن لم تصن فيه أيديهم ترائبهم ∴ فقد تبدد ، والأيام أنواء
طاحت بناصية الضعفى ، وسخَّرها ∴ كما يشاء الأشدَّاءُ الألبّاءُ
أحرارُ دهر همو المستيقظون لها ∴ ومن غفوا فهمو الموتى الأرقَّاءُ

وصف ما أوجزه وما أبلغه فى تصوير اللهفة والشوق إلى عودة السلم والحب والوئام ، وصف إن دل على شئ فإنما يدل على مدى استجابة الشاعر لما حوله ، ومدى عمق انطباعات هذه الأحداث فى نفسه ، وإنها لشديدة العمق .

وبعد جولة ، الجارم ، فى حضارة الشرق ، وماضيه ، وواقعه ينتقل الشاعر إلى موضوع القصيدة ، فيتحدث عن صحوة العرب ، والوحدة المرتقبة فى ظل الجامعة العربية فيقول :

صَحَا الشرقُ وانْجَابَ الكَرَى عن عيونهِ ∴ وليس لمَنْ رام الكواكبِ مضجَع
إذا كانَ فى أحلامِ ماضيه رائعاً ∴ فنهضتُه الكُبرَى أجلُّ وأروْعُ
تَوحَّدَ حتى صار قلباً تحوطه ∴ قلوبٌ من العُرْب الكرَام وأضْلُعُ
وأرسلَها فى الخَافِقينِ وَثيقةً ∴ لها الحُبُّ يُمْلى والوفَاءُ يوقِّعُ

لقد كان حُلْمًا أن نَرى الشرقَ وحدةً ∴ ولكِنْ مِنَ الأحـــلامِ مـــا يُتَوَقَّعُ
إذا عُدِّدتْ رايـــاتُه فَهْى رايـــةٌ ∴ وإن كثُرتْ أوطـــانُه فَهْىَ مَوْضـــعُ
فليست حدود تفصل اليوم بيننا ∴ لنا الشـــرقُ حدٌّ والعـــروبةُ مَوْقِعُ

إلى آخر الأبيات .....(١)

وفى هذه الأبيات يذكر الشاعر أن الشرق استيقظ من سباته ، وانكشف عنه ما كان يغشى حياته من ركود ، وأنه أخذ يعمل على أن يتبوأ أسمى مكانة ، وليس لمن عاوده هذا الطموح أن يهدأ أو ينام ، وأنه صمم أن يصل حاضره بماضيه ، وإذا كانت عظمته في هذا الماضى المجيد كالأحلام ؛ فإن نهضته الحاضرة بيقظتها وكفاحها أروع وأعظم . ويذكر من مظاهر هذه العظمة فى حاضره أنه قد توحد ، حتى صار قلبا تحيط به قلوب العرب وترعاه . وإن العرب قد أكدوا هذا التوحيد بميثاق الجامعة العربية ، الذى أذاعوه فى أرجاء العالم معبرا عن أعمق مشاعر الحب والوفاء .

وتروع الشاعر هذه الوحدة ، فيذكر أنها كانت فى بعدها كالحلم ، ولكنها تحققت ، وليس ذلك بعجيب ؛ لأن هذا هو الطبيعى من أمر العالم العربى ، فراياته وإن تعددت تتجمعُ فى راية واحدة لوطن واحد ، ودوله وإن كثرت لا تفصل بين أبنائها الحواجزُ التى اصطنعها الاستعمار ، وليس لهم جميعا إلا حدٌّ واحدٌ ، أما الحدُّ فهو الشرق وأما الوطنُ فهو العروبة وأساس هذه الوحدة مشاركةٌ وجدانية عميقة ،

---

(١) انجاب : زال وانكشف – الكرى : النوم – رام : طلب – مضجع : مرقد – أجل : أعظم ، أروع : أبعث على الدهشة لعظمتها – الخافقين : الشرق والغرب – وثيقة : وثيقة انشاء الجامعة العربية – يترقع : ينتظر – حشاشات : جمع حشاشة وهى بقية الروح فى المريض ، ذرا : جمع ذروة وهى أعلى شئ – خطب : حادثة ونازل رضوى : جبل بالحجاز قريب من المدينة – نأى : ابتعاد – مذرع : نزوع أى اقلاع وانفصال .

وروابط روحية وثيقة ، تظهرُ فى التجارب والتناصر بين الدول العربية فوق أرض الوطن الكبير ، فإذا مس بغداد ألم حزنت سائر العواصم العربية أعمق الحزن ، وإن نزل بلبنان حدث أثر أشد التأثير فى مصر ، ولو مس سوريا أقل خطب لكان له صداه فى وادى النيل كله .

ولو حدث مثل ذلك فى الحجاز لكادت له الأكبادُ تتقطع فى كل مكان من أرض العرب وهذا هو شأن العرب فى أخوتهم وتناصرهم : طريقهم هو طريق الفضل ، لا يتخذون غيره ووجهتهم هى وجهة المجد ، لا يتحولون عنها ، وهم دائما متمسكون بالحق ، يعملون على نصرته وكأنهم فى ذلك جمع موحدٌ ، فإذا انتهوا إلى رأى ما التقت عنده أراؤهم جميعا كانوا كأنهم فردٌ واحد .

هكذا ألقى « على الجارم » قصيدته فى مناسبة اجتماع ملوك العرب لبحث ميثاق الجامعة العربية ، ولكنها تختلف عن شعر المناسبات التى يتكلف فيها الشعراء القول ، ويحملون أنفسهم عليه ، وذلك لأن ناحية الوحدة العربية التى تدور حولها تشغل خلد كل عربى ، وتمس شغاف قلبه .

وقد عاش « الجارم » مآساة التمزق العربى ، ونزف فيها الدموع مع غيره ، وتفجع وتفجعوا وعللوا أنفسهم بأمانى كأحلام اليقظة ولكنهم كانوا يصحون منها على صدمة الواقع المر كما يقول ومن ثم كانت القصيدة صدى لمشاعره ، وكانت صلتها وثيقة بنفسه ، ومما زاد من وثاقة هذه الصلة ثقافته الدينية العربية .

وقد بدأها بجو مشرق يلائم المناسبة التى ألقيت فيها ، والأمل المعقود بها . فقد انطلق فى سبحة عاش بها مع حضارة الشرق وهى تهل على الكون ، وسايرها والدنيا تنتقل بمصابيحها ، وطاف معها وهى تشرق ببعث جديد ، يبدد ظلام الواقع ، وانتقل انتقالة طبيعة عاش بها فى آمال الشرق ، وفى وحدته المرتقبة ، وما وراء ههذ الوحدة من مجد وعزة فى خيط فكرى يربط بين أبيات القصيدة

جميعها ، وخيط شعورى متصل يشف عن روح الشاعر وأحاسيسه من خلال المواقف التى عبر عنها .

ويخرج الملاح بزورقه وقد أُمتحنت مشاعره ومشاعر أمته ، بل ومشاعر العالم كله ومن ثم نراه ينشر شراعه ويقترب بزورقه من شاطئ الأمان ، شاطئ الأمة العربية والوطن العربى الشاطئ الذى انتظرته عليه جماهير الشعب ونجد شعر (الملاح) يؤكد صدق مشاعره وعمق احساسه بكل خواطر وأحاسيس الأمة العربية غير مكتف بالرمز والإيماء معبرا عن نفس المعنى الذى وقفنا بصدده لدى « على الجارم » . فيقول :

بنى العروبة دار الدهرُ واختلفت ∴ عليكم غيرُ شتّى وأرزاءُ
مضى بضائقتيها الأمسُ وانفسحت ∴ أمام أعينكم للمجد أجواءُ
اليوم شيدوا كما شادت أبوّتكم ∴ شرقاً دعائمه كالطود شمّاءُ
دستوره وَحدةٌ مثلى ، وشرعتهُ ∴ بالحق ناطقةٌ بالحبِّ سَمْحاءُ
لكم بحاضركم من دهركم نُهزٌ ∴ فيها لغابركم بعثٌ واحياءُ

إلى آخر الأبيات ..... .(١)

وهكذا نرى زورق (الملاح) لا يمعن فى النيه ، وإنما يتلمس طريق الهداية وسط الضباب الكثيف الذى اكتنفه أثناء رحلة مرارة التمزق والتصدع العربى ويبلغ صدقه ذروته فى تعبيره عن فكرة الأمة العربية الواحدة التى تشترك فى الآمال والآلام وتجمعها وحدة اللغة والدين والتاريخ والمصير . هذه الفكرة التى نراها تملأ جوانب نفسه وتفرض نفسها عليه .

وهو لا يكتفى بأن يذكرنا بحقيقة الوحدة الجغرافية للعالم العربى وإن

(١) شماء : عالية مرتفعة – غابركم : سالفكم – يصدع : يشق – مشاء : يمشى بالنميمة .

تعددت أسماء أجزائه ، وإنما هو يحشد كل امكانياته ليبرز هذه الوحدة العربية واضحة جلية أمام كل ذى بصر ، ويسوق الأدلة والبراهين على ضرورة بل وجوب التوحد العربى .

على أن هذا التحول الخطير فى حياة « على محمود طه » من رجل يعيش لنفسه إلى رجل يعيش للناس ومن شاعر يتغنى بمشاعره الفردية بذاتيته البحتة إلى شاعر يتغنى بمشاعر كل عربى من الخليج إلى المحيط (بشاعر موضوعي) لم يكن هذا التحول نوعا من المصادفة ، إنما هو وليد ظروف فرضت نفسها عليه وعلى الأمة العربية كلها فتعايش معها وامتزج بها وحلق فى سمائها وتعمق فى أغوارها . وقد كان « على محمود طه » كما قلت من قبل شاعر أمته العربية ، لا تكاد تمر بها حادثة إلا صاغها شعراً رائعاً حتى نحس ونحن نقرأ قصيدته أنها تؤلف فيما بينها صورة تفصيلية دقيقة لكل محن الأمة ، ويحذر من ضياع ميثاق التوحد العربى ويؤكد بشدة على العربي بوجوب حماية حقوقه ولا يخطئ فليس يغفرُ بعد يوم الوحدة العربية أخطاءُ .

وهو لا يألو جهداً فى تذكير أبناء الأمة العربية بما يربطهم من أواصر اللغة والدين والحضارة والتراث والتاريخ ، وهو لا يخفى قلقه من أن تشوه أيد أجنبية دخيلة هذه « العروة الوثقى » .

ولعل المشكلة الكبرى التى كانت - وما زالت - تواجهها الأمة العربية هى مشكلة فلسطين وإن غاب عن شاعرنا الكبير (على الجارم) الحديث عنها فى قصيدته .

ولم يغب عن بال « على محمود طه » أن السهم الذى يوجه إلى فلسطين إنما يوجه إلى الأمة العربية كلها ، وأن الجرح الدامى الذى أصاب فلسطين هو فى الواقع جرح كبير فى قلب هذه الأمة . وما أسرع ما تحول هذه الإحساسات فى

نفس الشاعر إلى أنغام عذبة شجية وقّعها على قيثارته علها تأسو هذا الجرح أو علها تخفف من حدته .

وليس ثمة شك فى أن قضية فلسطين كانت تشغل جزءا كبيرا من حياة شاعرنا (الملاح) وربما لم يظفر قطر عربى من « على محمود طه » بما ظفرت به فلسطين . فلطالما حدثنا عنها ، ولطالما استنفر العرب لاسترداد الوطن السليب . وعندما رأى رؤساء العرب يجتمعون لتكوين الجامعة العربية . أسرع إليهم يستحلفهم بالله أن يذكروا إخوانهم الذين أخرجوا من ديارهم وسلبت أموالهم بغير حق .

وكلما تمثلت أمام عينه مشكلة فلسطين . وكأن أشباح القتلى الذين استشهدوا على الأرض الطيبة لم يكونوا يفارقون خياله .

وواضح أن (الملاح التائه) هنا لا يعبر عن نفسه بقدر ما يعبر عن شعب مصر والشعب العربى كله ولا يترجم مشاعره وحده إنما يترجم مشاعر الأمة العربية كلها تجاه هذا الحدث وهو قيام (الجامعة العربية) ، أو عقد الميثاق العربى .

وهكذا أصبح « على محمود طه » شاعر الجماعة بحق فهو يذوب فى الجماهير العربية ، يدعو إلى التمسك بالوحدة العربية ففيها القوة التى تخشى وتهاب .

هذا بالنسبة لموضوع الموازنة بين « على محمود طه » ، والشاعر « على الجارم » فى قصيدة قومية ألقاها كل منهما فى حفل لمناسبة إنشاء الجامعة العربية .

- أما من حيث الاستخدام اللغوى والصياغة فتحس عدة ملامح للشاعر « على الجارم » وهى : غالبا ما يختار الألفاظ الجهيرة الجزلة لإنه كان فى دار

العلوم وفى مجمع اللغة العربية ، وهو يصوغ عبارته صياغة متينة النسيج خطابية الوقع ، ونرى فيها تلاؤماً بين اللفظة والفكرة ، فحيث الحديث عن حضارة الشرق التى أهلت على الزمان فى طفولته الباكرة نرى (السنا - يشب - يسطع - أشرقت - نور) .

وحيث تخلّف حاضره إذ ذاك نرى ألفاظ مثل : (ترى الدموع ، والتفجع ، وأطياف النائم ، والروع) .

- والشاعر يستخدم الألفاظ استخداما سليما وجميلا مثل لفظة (مرة) فى قوله : (فهل مرة أجدى علينا التفجع ؟) ولفظة (لو) فيما يصيب البلاد العربية ولفظة (أولئك) التى تدل على التعظيم فى قوله : (أولئك أبناء العروبة) وبالتقديم فى (من الحق أو نور البصائر تطلع) وفى : (فأنفسهم فى شرعة الحق ضيعوا) .

- يتنوع أسلوب القصيدة بين الإنشاء والخبر ، ويسود الأول حيث الإنفعالات فى المقطعين الأول ، والثانى ، كما يسود الأسلوب الخبرى فى المقطع الأخير .

أما ما نستشعره من ملامح لدى الشاعر ، على محمود طه ، فهى :

- تميزه بنفس السلاسة اللغوية وعذوبة الموسيقى ، إلا أنه لا يبرز بطابع خاص أو أصالة محددة من ناحية معانيه واتجاهاته ، فهو مرآه للرأى الوطنى والقومى فى حقبة شعره القومى لأنه ؛ بطبعه السمح ، الهادئ الانفعال ، الأميل إلى الرضى عن الحياة . أطلعنا على شعر موسيقى غنائى لطيف وإن كان تعمق فيه بصدق ولكن لم تصل طاقته الشعرية إلى درجة العمق وقوة الانفعال وقوة الموسيقى الخطابية الجهيرة التى نحسها عند الشاعر ، على الجارم ، .

- أرسل ، على محمود طه ، معانيه من شتى الجوانب والجهات لتلتقى هذه

المعانى وتتجمع فى (صورة) بعينها تتركز فيها الطاقة الشعورية ، ثم عاد ليؤلف بينها وليخرج منها (صورة كبرى) تعرف موضعها من الإطار والجدار فى قومية صادقة . فإننا لا نلاحظ لفظا واحدا يرهقنا بطول الجرى وراء معناه ، ولكنها الألفاظ العادية تسير فى مجراها الطبيعى وتمضى فى طريقها المرسوم ، دون أن تحوجك إلى السؤال تلو السؤال : ماذا يقصد الشاعر ؟ فى مثل قوله :

أم الدبيون قد أزجت سفائنهم ∴ موعودة من ليالى الديل قمراء

أم طالعتك من السحر القديم رؤى ∴ يشدو بهن الثرى والريح والماء

ولا إلى أى معنى يهدف ؟ وإلى أي وجهة نفسية يطلق لخياله العنان ! ولن نصادف صورة واحدة تكدح ذهننا فى سبيل الربط بين أجزائها المتناثرة أو التنسيق بين ظلالها المتداخلة وأضوائها المتشابكة . الصورة المنتظمة الواضحة الخالية من التعقيد والغموض فى بناء متكامل .

– وكذلك يتنوع أسلوب القصيدة بين الإنشاء والخبر ، ويسود الأول حيث الإنفعال فى المقطعين الأول وبعض الثالث ، كما يسود الخبرى فى المقطع الثانى ومعظم الثالث .

– تجاوز الشاعر حدود المكان ، فقد تجاوز حدود الزمان أيضا ، وراح يغوص فى أعماق الماضى ويلتقت صوراً للبطولة والفداء التى تبرز ما تناقله الناس فى الحرب العالمية الأخيرة وما ذاقه العالم العربى من أضرار وعهود غادرة فطالعته صور (عمرو بن العاص) فاتحا مصر بنور الإسلام فائتلفت به زبرجدة فى الشط خضراء . وأمام تلك الصورة المشرقة وقف الشاعر يتساءل وقد بهره هذا التجمع العربى لإرساء قيام الجامعة العربية .

أم سار (عمرو) بنور الفتح فائتلفت ∴ به زبرجدة فى الشط خضراء

وهكذا استحال الغناء الرخيم إلى زئير وهدير ، وبعد إن كان (الملاح التائه) يعيش لنفسه وهواه ، أصبح يضطرب فيما تضطرب فيه الجماعة من الأهوال والمحن والخطوب . وهكذا ينتقل بنا الشاعر من ذاتيته المقنعة إلى موضوعية بحثه بما أطلعنا عليه من شعر قومي أصيل .

– أما من حيث الموسيقى : لدى كل من الشاعر «على الجارم » ، والشاعر « على طه » :

فإن موسيقى الأبيات لدى الشاعر « على الجارم » من النوع المجلل الرنان بألفاظها الجهيرة التى يكثر فيها المد وبقافيتها القوية وبحرها الطويل ، وبالتقسيم فيها وتوازن الإيقاع فى التركيب .

والقصيدة كما أرى من الشعر القومى الذى تفتح وشاع فى العصر الحديث والشاعر « على الجارم » من المدرسة المحافظة على التراث الموروث بالتزامه وحدة الوزن والقافية ، واستحيائه كثيرا من الصور الموروثة ، وعنايته الفائقة بالناحية اللغوية .[1]

ذلك مع ما فيها من ملامح الجِدّة فى وحدة الموضوع ، ووحدة الجو النفسى الذى يظللها ويشيع فيها .

– أما موسيقى شاعر الجندول : « على محمود طه » :

الظاهرة اللافتة للنظر فى قصيدة « على محمود طه » تدلنا على فنه وعلى نفسه أيضا فهو رجل ذواقة مفتن . رقيق النفس يسير فى تناوله للأشياء . لا يعرض عليك فكرا فلسفيا تضل فى فيافيه . وإنما يعرض عليك إحساساً بالفن يبهرك ويملأ نفسك رضا وسرورا وهو احساس واضح كل الوضوح ، صادق غاية الصدق .

---

(١) انظر النصوص الأدبية فى العصر الحديث د/ عبد الحسيب طه ص٥٥ طبع مطبعة السعادة بالقاهرة .

فهو لا يتكلف ولا يتصنع وإنما يعرض عليك انفعالات الساعة فى صدق وأمانة ولا يقف عند الصور والرسوم وإنما يتجاوز ذلك إلى البناء الشعرى نفسه .

- فنجد عنده حرية واسعة فى استخدام ألفاظه وتنويع قوافيه وأي براعة (للملاح) إذا كان يصمم كل رسومه على طراز واحد ويصبها جميعا فى نفس القالب ؟ وأى براعة للشاعر المهندس تجعل حجرات البيت كلها متساوية فى الطول والعرض والارتفاع متشابهة فى اللون والزخرف والزينة ؟ وكأن الشاعر كان يقيس أفكاره بالمسطرة وبالفرجار لأنه كان مهندسا ، (على محمود طه) كان حرا فى أن يستعمل ما يشاء من الأفاظ ولكنه ليس حرا فى أن يخرج على الميزان الشعرى على أى حال . هو حر فى أن ينوع القوافى ولكن بقدر . فهو قد قرأ لشعراء الإنجليز والفرنسيين وأدرك تلك الحرية المطلقة التى يبحها أولئك الشعراء لأنفسهم فيما يختص بالوزن والقافية .

ولكن اللغة العربية شئ ، واللغتين الانجليزية والفرنسية شئ آخر . والشعر العربى شئ والشعر الأوربى كله شئ آخر . وما يسيغه الذوق الغربى لا يتحتم أن يسيغه الذوق الشرقى .

فى هذا الإطار مارس (على محمود طه) حريته فى اللفظ والقافية . حرية تتطور بالقديم ولكن لا تهدمه ، بل إنها تتشبث به أحيانا لأنها لا ترى فى التجديد خيراً كثيراً ولا تراه يستطيع أن ينهض بما ينهض به القديم ، ولا أن يصمد له القديم .

فهو حين يخاطب الجماعة ، وحين يتحدث عن البطولة ، يلتزم الوزن الواحد والقافية الواحدة من أول القصيدة إلى آخرها . فما ينبغى أن يتقطع هذا التيار الجارف الذى يسرى فى القصيدة القومية ، وما ينبغى أن تترنح القصيدة فتمثل قافيتها ، وما ينبغى له أن يضعف حينا ويقوى حينا آخر . وإنما الذى ينبغى

هو أن ينحدر هذا التيار القوى من أول القصيدة إلى أن يبلغ مداه عند آخرها . فذلك أليق بجلال الموضوع بجلال القومية وبجلال شاعرية (على طه) .

فلاشك أننا وجدنا فى أبيات قصيدته القومية التى بين أيدينا تقسيما موسيقيا جميلا وكأنى به قد تصور البيت الشعرى خطا مستقيما فراح يقسمه إلى أبعاد متساوية أو كأنى به يتصوره بيتا يريد أن يضع له تصميماً بديعا ، وهو يفتح فى كل حجرة نوافذ يتسرب منها هذا الجو الموسيقى الذى يملك عليك مشاعرك ويحملك حملا على أن تعجب بالشاعر اعجابا لا حد له .

وعن أسلوب الشاعر يقول : الدكتور « طه حسين » يصف شاعرنا بأنه « حلو الأسلوب جزل اللفظ جيد اختيار الكلام ، وإن لألفاظه ومعانيه رونقا أخاذا تألفه النفس وتكلف به وتستزيد منه » .

وأما عن موسيقى شعره فيقول أيضا : « قلما نظفر بها فى شعر كثير من شعرائنا المحدثين وإنه استطاع أن يلائم – إلى حد بعيد – لا بين جمال اللفظ وجمال المعنى فحسب ، بل بين التجديد والاحتفاظ باللغة فى جمالها وروائها وبهجتها وجزالتها » .[1]

وحسبى ما عرضت من نماذج قوميته المتضمنة للأسلوب والموسيقى وشعور قومى تمتع به شاعرنا الملاح التائه .

ويحدثنا « أنور المعدواى » بأن « على طه » ليس شاعرا من أولئك الذين يصوغون الحياة أفكارا منظومة مجردة من أثواب الشعور ، وليس شاعرا من أولئك الذين ينقلون الحياة نقلا آليا لا روح فيه ، ولكنه من أولئك الذين يتفردون بالذاتية والأصالة عند تصوير الحياة فى لحظات التوهج والتوثب والانطلاق ، ويقول : « لقد كان شعره مرآة صادقة لهذا الوجود الذى عاش فيه لأنه كان صادقا فى صحبته لتلك المرآة » .

---

(١) مع الملاح التائه « على محمود طه » ذ/ عبد الستار الحلوجى ص١١٨ .

والصفة البارزة التى يخلعها « أنور المعداوى » على شاعرنا هى إنه شاعر الأداء النفسى الذى يعنى بالموسيقى الداخلية ليجذب شعور القارئ » .[1]

ونخرج من هذا وذاك بأن الملاح التائه قد شغل بشعره القومى وبحفاظه على تراثه الشعرى الذى حظى باهتمام كل مصرى وعربى .

ومن دراستى لهذا النتاج الشعرى القومى ، اتضح لى أن صاحبه كان يتمتع بشاعرية خصبة وشخصية جذابة متعددة الجوانب . فهو يبهرك حين تقرأ له ويشدك إليه حتى لا تستطيع من أسره فكاكا أو خلاصا . بل حتى لا تريد أن ينفك عنك سحره أبداً فهو واحد من شعراء قلائل تقرأ لهم فلا تلبث أن تنعقد بينك وبينهم أواصر المحبة والصداقة والاعجاب جميعا .

وفى ذلك يقول السيد تقى الدين السيد فان الفكرة التى يلح عليها فى كتابه عن (على محمود طه) هى إنه شاعر التصوير الحسى الناطق [2] » ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهدا ، وإذا النموذج الإنسانى شاخصاً حياً ... » .[3]

وإذا كان الناس لا يذكرون شاعر الجندول إلا قليلا ، فإن التاريخ الأدبى لهذه الأمة سيذكره دائماً ملاحاً تائهاً ، وشاعراً ملهماً ، ومفتناً عبقرياً ، وشاعراً قومياً ، وسيبقى اسمه أبداً مرتبطاً بـ (أبناء الشرق) وبـ(يوم الملتقى) .

---

(١) المرجع السابق ص١٢٢ ، ١٢٣ .

(٢) على محمود طه : حياته وشعره ص١٤ .

(٣) على محمود طه : حياته وشعره ص٤١٤ ، ١٤٢ ..

فهرس المصادر والمراجع[1]

١ – أنور المعداوى – على محمود طه الشاعر والإنسان – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩م .

٢ – الجارم (ديوان على الجارم) ج١ ، ٤ القاهرة ١٩٤٧ .

٣ – د/ السيد تقى الدين سيد – على محمود طه حياته وشعره م . مصر .

٤ – ساطع الحصرى وآخرون – آراء ودراسات فى الفكرى القومى – كتاب العربى يوليو ١٩٨٥م .

٥ – سيد أحمد – على محمود طه بين شعراء مصر المعاصرين – رسالة علمية جامعة عين شمس ، كلية الآداب .

٦ – عباس خضر – أدب المقاومة – دار الكتاب المصرية ١٩٦٨ .

٧ – عباس خضر – الأدب والمواطن – دار المعارف ١٩٧٧ .

٨ – د/ عبد الستار الحلوجى – مع الملاح التائه على محمود طه – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ .

٩ – د/ عبد الحسيب طه – النصوص الأدبية فى العصر الحديث – م السعادة ١٩٧١ .

١٠ – د/ عبد العزيز شرف – الفكر القومى المصرى – م الأهرام ١٩٨٠ .

١١ – عبد المجيد عابدين – بين شاعرين مجددين (ايليا أبو ماضى وعلى محمود طه) .

(١) رتب هذا الفهرس ترتيباً أبجدياً حسب أسماء المؤلفين .

١٢ – على محمود طه – دواوينه مجلد دار العودة – بيروت ١٩٨٦ .

١٣ – د/ محمد زغلول سلام – القومية العربية فى الأدب الحديث – دار المعارف مصر ١٩٥٩ .

١٤ – د/ محمود كامل – عروبتنا – دار المعارف مصر ١٩٦٤ .

١٥ – د/ محمد مندور – الشعر المصرى بعد شوقى ج٢ م معهد الدراسات العربية ١٩٥٨ .